دراسات في الكتاب المقدس

الأب فاضل سيداروس اليسوعي

تكوين الأناجيل

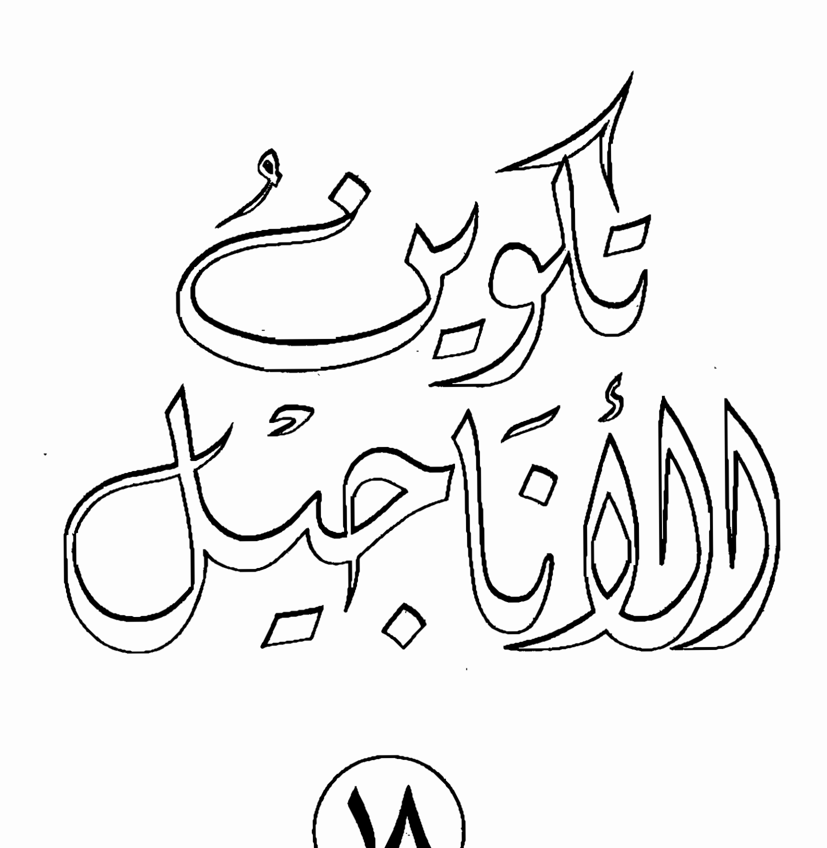




دار المشرق - بيروت



الأب فاضل سيداروس اليسوعي





سلسلة

«دراسات في الكتاب المقدس»

المدير : **الأب أنطوان أودو اليسوعي**

لا مانع من طبعه
بولس باسيم
النائب الرسولي للاتين
بيروت ١٩ حزيران ١٩٨٩

ISBN 2 - 7214 - 4571 - 5

دار المشرق ش.م.م — ص. ب. ٩٤٦ — بيروت

التوزيع
المكتبة الشرقية ، ص. ب. ١٩٨٦
بيروت ، لبنان

جمعيات الكتاب المقدس في المشرق
ص. ب. ٧٤٧ — ١١ ، بيروت ، لبنان

تصميم الغلاف : **جان قرطباوي**

المقدِّمة

الهدف من هذه الدراسة

تتوخَّى هذه الدراسة توضيح كيفية تكوين الأناجيل* : فهناك انجيل واحد، أي بشرى واحدة، وهو انجيل يسوع المسيح. وفي الوقت نفسه، هناك أربعة أناجيل، أي أربع روايات متكاملة عن انجيل يسوع المسيح. ذلك بأن يسوع لم يكتب شيئاً (إلَّا مرّة واحدة باصبعه في الأرض: يو ٨ / ٦). بل هناك أربعة إنجيليين دوّنوا البشرى. فليس الكتاب المسيحي كتاباً مُنزلاً كتبه الله، بل هو كتاب كتبه بشرٌ بإلهام الروح القدس. وسيجرّنا الحديث إلى أن نقرّ بأن الكتاب كان في بداية الأمر عبارة عن روايات شفهية تداولتها الجماعات المسيحية الأولى ودوّنها الانجيليّون الأربعة، كلٌّ باسلوبه الخاص وقصده اللاهوتي الخاص. والروح القدس ألهم هؤلاء المسيحيين بأن يدوِّنوا الروايات الشفهية في أربعة أناجيل.

وستقودنا دراستنا إلى الإقرار بأن هذه الأناجيل الأربعة ليست بمثابة «تحقيق صحفي» أو «كتاب تاريخ» يُراد به تدوين وقائع حديث لرجل اسمه يسوع الناصري: فالأناجيل هي «شهادة» و«إعلان» ليسوع المسيح الممجَّد في سرّ موته على الصليب وقيامته من بين الأموات. ومن منطلق سرّ حدث موته / قيامته كمحور ومركز وهدف، ذهبت الأناجيل إلى سرد أحداث حياة يسوع الناصري من ميلاد ومعجزات وأعمال وأقوال...

أهمية هذه الدراسة

لدراستنا هذه عدَّة اهتمامات. الأول هو تعميق معرفتنا لكلمة الله، أي لبشرى خلاصنا. فليست هذه الدراسة بمثابة بحث علمي أو تفسير علمي محض، بل تستهدف أولاً معرفة تأمّلية وإيمانية لكلمة الله. صحيح أن المعرفة هذه تفترض

دراسة دقيقة وموضوعية للنصوص الانجيلية. إلّا أن اهتمامنا أوسع من ذلك، وهو تعميق المعرفة الايمانية، وفهم كلمة الله وإدراكها وتذوّقها من الداخل. فالرجوع إلى «تكوين الأناجيل» — من الروايات الشفهية إلى التدوين الرباعي، من يسوع المسيح الممجَّد إلى يسوع الناصري، من يسوع المسيح، كما صوّره الإيمان المسيحي، إلى يسوع، كما عاش مع التلاميذ — سوف يكشف لنا أبعاداً وأعماقاً لا تخطر ببالنا الآن، وينمّي إيماننا بكلمة الله الحيّة.

ومن جهة أخرى، يهمّنا أن نستوضح ما يتردّد في مجتمعنا عن «تحريف الأناجيل». فكل ما قلناه إلى الآن يكفي ليُقنع باحثاً سطحياً بأن الأناجيل قد حرّفها المسيحيون، إذ بين يسوع الناصري والروايات الشفهية والتدوين الرباعي عن يسوع المسيح الممّجد فجوة وهاوية. والحقيقة، كما تبيّناها بوجه عابر، هي أن الأناجيل، والعهد الجديد بمجمله، كتاب إيمان لا كتاب تاريخ، وإن تضمّن هذا الإيمان سرد أحداث ووقائع تاريخية. ولكن الايمان شكّل هذا السرد بتصرّف وإخلاص في آن واحد. وستبيّن دراستنا أن لا تعارض بين حرية التصرّف والإخلاص في الأناجيل، وأن يسوع الناصري في أقواله وأعماله التاريخية هو يسوع المسيح الممجَّد، كما ظهر في الأناجيل الأربعة.

تصميم الدراسة

تتكوَّن دراستنا من المراحل الآتية:

١ — في باب أول، سنوضّح معنى الاختلافات في بعض النصوص التي تروي حادثاً واحداً. فنحلّل بعضها ليتبيّن لنا كيف كُتبت الأناجيل تَبعاً لجمهور معيّن وبيئة معيّنة وقصد لاهوتي معيّن... يختلف من إنجيلي إلى آخر إلى حدٍّ ما.

٢ — وفي باب ثانٍ، سنتصدّى لموضوع تكوين الأناجيل من الروايات الشفهيّة إلى التدوين الرباعي، معتمدين على بعض النظريّات التفسيريّة في تكوينها.

٣ — وفي باب ثالث، نبرز العلاقة القائمة بين الفنّ الأدبي الخاصّ بالأناجيل وصحّتها التاريخية، أي العلاقة بين يسوع الناصري في أقواله وأعماله ويسوع المسيح الممجَّد في سرّ موته وقيامته.

٤ — وفي باب رابع، نتطرّق إلى صحّة الأناجيل، فنبيّن الضمانات والتحقيقات التي تُثبت صحّتها يقينياً.

فهناك أربعة مستويات تتضمّنها دراستنا، الأول تفسيري (Exégétique) والثاني تاريخي (Historique) والثالث أدبي (Littéraire) والرابع دفاعي (Apologétique).

° إستندت في تأليف هذه الدراسة إلى كتاب

Xavier LEON-DUFOUR S.J.
La Formation des Evangiles

الباب الأول

معنى الاختلافات في النصوص الإنجيلية

يتضمّن هذا الباب المستوى التفسيري (Exégèse) لبعض النصوص الانجيلية، حيث سنقارن بين الروايات المتوازية[1] عند الانجيليين، على نيّة توضيح وجوه الائتلاف والاختلاف في ما بينها. وسنكتفي بتفسير معجزة يسوع في تسكين العاصفة بحسب روايات متّى ومرقس ولوقا، وخطبة يسوع في التطويبات في روايتي متى ولوقا. وكان باستطاعتنا إضافة مثل من الأمثال التي ضربها يسوع (مثل الزارع أو الكرّامين القتلة...)، وكذلك حدث من الأحداث (الميلاد أو الآلام أو الصلب...)، ولكن يكون من المفيد أن يقوم القارئ نفسه ببحث تطبيقي في هذا المجال.

ومن دراسة نصيّ المعجزة والخطبة، سنحاول استخلاص معنى الاختلافات، فنُبيِّن كيف أنها تخضع لقصد لاهوتي خاص بكل انجيلي، علماً بأنه يقصد وجهاً من وجوه شخصية يسوع أو تعليمه.

يسوع يسكّن العاصفة

وردت هذه المعجزة عند متى (٨/ ٢٣ — ٢٧) ومرقس (٤/ ٣٥ — ٤١) ولوقا (٨/ ٢٢ — ٢٥)، كل من منظاره الخاص[2]، وسنُظهر خصائص كل إنجيلي على حدة، ونحاول بعد ذلك معرفة الحدث وتفسيره.

١. الأناجيل المتوازية أو الإزائية (Evangiles synoptiques) هي أناجيل متى ومرقس ولوقا، إذ إنها متشابهة في البنية وفي سرد الأحداث عينها والأحاديث، خلافاً لانجيل يوحنا الذي يتّسم بسمات خاصة.

٢. راجع النص المتوازي المرفق لسرد المعجزة.

يسوع يسكّن العاصفة

متى ٨	مرقس ٤	لوقا ٨
١٨ رأى يسوع جموعاً كبيرة حوله. فأمر بالعبور إلى الشاطئ المقابل.	٣٥ وفي اليوم نفسه قال لهم عند المساء «لنعبر إلى الشاطئ المقابل.	٢٢ وذات يوم ركب سفينة ومعه تلاميذه فقال لهم: «لنعبر إلى شاطئ البحيرة المقابل». فأقلعوا.
٢٣ وركب السفينة فتبعه تلاميذه إليها.	٣٦ فتركوا الجمع وساروا به على حالته في السفينة، وكان معه سفن أخرى.	
٢٤ وإذا البحر قد اضطرب اضطراباً شديداً. حتى غمرت الأمواج السفينة، وأما هو فكان نائماً.	٣٧ فهبّت عاصفة هوجاء وأخذت الأمواج تندفع على السفينة حتى كادت تمتلئ. ٣٨ وكان هو في مؤخّرها نائماً ورأسه على وسادة.	٢٣ فهبّت على البحيرة عاصفة فكاد الماء يغمرهم ٢٣ أ ثم نام وهم سائرون وأصبحوا على خطر
٢٥ فدنوا منه وأيقظوه وقالوا له: «ربنا! خلّص لقد هلكنا».	فأيقظوه وقالوا له: ٣٩ أ «يا معلم! أما تبالي أننا نهلك»	فدنوا منه فأيقظوه وقالوا: ٢٤ أ «يا معلم! يا معلم! لقد هلكنا».
٢٦ فقال لهم: «ما لكم خائفين يا قليلي الايمان؟» ثم قام فزجر الرياح والبحر،	٤٠ ثم قال لهم: «ما بالكم مضطربين هذا الاضطراب؟ إلى الآن لا إيمان لكم؟» ٣٩ ب فقام وزجر الريح وقال للبحر: «اصمت! اخرس!» فسكنت الريح	٢٥ أ فقال لهم: «أين ايمانكم؟» ٢٤ ب فقام وزجر الريح والموج فسكنا

فعاد هدوء تام.	وعاد هدوء تام.	وعاد الهدوء.
	[41] فاستولى عليهم خوف شديد	[25] ب فخافوا
[27] فتعجب الناس،		وأعجبوا
وقالوا:	وقالوا بعضهم لبعض:	وقال بعضهم لبعض:
«من هذا حتى الرياح والبحر.	«من تُرى هذا حتى الريح والبحر	«من تُرى هذا حتى الرياح والأمواج يأمرها
تطيعه!».	تطيعانه!».	فتطيعه!».

خصائص رواية مرقس

إطار المعجزة: أدرج مرقس المعجزة بعد سلسلة أمثال ضربها يسوع وهو يعلّم عند شاطئ البحر على السفينة (٤ / ١ — ٣٤). وتبدأ المعجزة في آخر النهار (٣٥)، ويبتعد عن البرّ وينام على وسادة السفينة (٣٨)، ربّما بسبب الإرهاق. وتلي المعجزة معجزة طرد أرواح نجسة عند الجيراسيين في الشاطئ المقابل (٥ / ١+) ومعجزتان أُخْرَيان (٢١+). ويسبق كل هذه الوحدة حديث عن قرابة يسوع الحقيقية (٣ / ٣١+)، ويليه رفض وطنه له (٦ / ١+). وسنرى في تحليلنا أهمية هذا التقسيم.

رواية المعجزة: يتميّز مرقس بأنّه واصف رائع وماهر. وقد بنى المعجزة على ثلاثة مشاهد مضادّة:

+ عاصفة على السفينة (٣٧).	/ نوم يسوع (٣٨ أ).
+ خوف التلاميذ (٣٨ ب).	/ سيطرة يسوع (٣٩ أ).
+ هدوء البحيرة (٣٩ب).	/المعجزة في التلاميذ (٤١).

وهناك الآية ٤٠: «ما بالكم مضطربين هذا الاضطراب؟ إلى الآن لا إيمان لكم؟» وهي تستدعي تحليلاً خاصًّا.

قصد المعجزة اللاهوتي: بعد النظر إلى المشاهد الثلاثة المضادّة، من الممكن أن نتساءل: ما هو موقع الآية ٤٠ التي لا مكان لها في بنية النص؟ فضلاً عن أن المقارنة بين هذه المعجزة ومعجزة طرد روح نجس (مر ١ / ٢٣+) تبيّن البنية نفسها دون إدخال موضوع الإيمان فيها.

+ تقديم المريض (٢٣أ).
+ المريض ينادي يسوع (٢٣أ)[٣] .
+ يسوع يأمر الشيطان (٢٥).
+ شفاء المريض (٢٦).
+ إعجاب المشاهدين (٢٧).

/ وصف العاصفة.
/ التلاميذ يستغيثون بيسوع.
/ يسوع يأمر العاصفة.
/ هدوء العاصفة.
/ إعجاب التلاميذ.

فالراجح أن الآية ٤٠ الخاصة بالإيمان لا تدخل في متن النص. فإن قبلنا هذا الافتراض، أصبح مغزى المعجزة وقصدها اللاهوتي السؤال الذي يختمها: «من تُرى هذا حتى الريح والبحر يطيعانه!» (٤١). وكذلك معجزة طرد الروح النجس: «ما هذا... حتى الأرواح النجسة يأمرها فتطيعه!» (١ / ٢٧). أي أنّ قصد مرقس اللاهوتي هو إظهار شخصيّة يسوع المسيح[٤]، فقد أورد المعجزة ليُبرز من خلالها سلطة يسوع.

فيسوع هذا يسكّن العاصفة، غير أن الله وحده يقدر أن يأمر البحر، والبحر في عقلية اليهود رمز لقوى الشرّ وقوى الجحيم. لكن التلاميذ لم يستطيعوا حتى تلك الساعة أن يُقرّوا بألوهية يسوع، لأن المعجزة حدثت قبل القيامة، وكذلك يقول لهم يسوع: «أإلى الآن لا إيمان لكم؟»، (أي قبل القيامة)، ولذلك يختم مرقس روايته بسؤال: «من تُرى هذا...؟».

وإذا وضعنا هذا الافتراض جانباً ودمجنا موضوع الإيمان دمجاً تاماً في الرواية، أصبح قصد مرقس اللاهوتي، لا مسيحانياً (أي إظهار شخصية المسيح: (Christologique)، بل تعليمياً (أي تربية يسوع لإيمان تلاميذه: (Catéchétique).

فإذا قبلنا هذا الافتراض، فهمنا معنى كلمة يسوع: «ما بالكم مضطربين هذا الاضطراب؟»، وهي لم ترد في رواية متّى ولوقا، ولها معنى عميق جداً (باليونانية deiloi). نقرأ شيئاً شبيهاً في ٢ طيم ١ / ٧ (ردّ فعل الإنسان أمام الهلاك، كأن الله غير موجود)، وفي يو ١٤ / ٢٧ («لا تضطرب قلوبكم... سأرجع إليكم...»). فأمام هذا الاضطراب لا بدّ من الثقة بالله (متى ٦ / ٢٠ — ٣٣، رسل ٢٧ / ٢٣ — ٢٥). فالاضطراب الذي وقع فيه التلاميذ هو بمثابة عدم الثقة بيسوع، مع أن يسوع كان نائماً، مطمئناً، واثقاً بالله. ففي هذه الحالة، لم يكن النوم بسبب الإرهاق، بل شدّد مرقس، ليُظهر ثقة يسوع بالله. وهكذا يصبح قصد مرقس اللاهوتي — من خلال

٣. هناك استطراد، كما هو الأمر في معجزة تسكين العاصفة، وهو قول الروح النجس: «ما لك يا يسوع الناصري؟ أجئت لتُهلكنا؟ أنا أعرف من أنت: أنت قدّوس الله» (٢٤).

٤. في المعجزات الأخرى أيضاً. راجع مثلاً: ١ / ٢٧ و ٢ / ١٢ و ٥ / ٤٣ الخ..

هذه القراءة للمعجزة — قصداً تعليميًّا.

وفي نهاية الأمر، هل هدف مرقس اللاهوتي مسيحاني أم تعليمي؟ للجواب عن هذا السؤال، علينا أن نقارن بين رواية لوقا ورواية متى، لعلّ ذلك يلقي ضوءاً على هذا الهدف ويُتيح لنا الاهتداء إلى الجواب.

خصائص رواية لوقا

إطار المعجزة: إنه شبيه بإطار مرقس من حيث التعليم بالأمثال الذي يسبق المعجزة (٨/ ٤+) والمعجزات الثلاث التي تتبعها (٨/ ٢٦+)، ومن حيث القرابة الحقيقية (٨/ ١٩+). إلّا أن هناك بعض الفوارق، منها عدم رفض وطن يسوع له، بل التشديد على الجراسيّين له (٨/ ٣٧+). ثم إنّ تعليمه لم يكن عند شاطئ البحيرة، كما الأمر هو عند مرقس، بل في المنزل أو في جواره (٨/ ١٩+)، ولم تحدث المعجزة في نهاية يوم مرهق، بل «ذات يوم» (٢٢)، أي ربّما كان يسوع يقصد الصعود إلى السفينة والذهاب إلى الشاطئ المقابل، كما سنرى ذلك لاحقاً.

رواية المعجزة وقصدها اللاهوتي: يقترب وصف لوقا من وصف مرقس، إلّا أنه يتميّز عنه ببعض النقاط ولا سيّما:

+ التلاميذ «دنوا» (٢٣) من يسوع باحترام، ينادونه: «لقد هلكنا» (٢٤). وهذا غير ما رواه مرقس («أما تبالي...»).

+ عتاب يسوع بشأن قلّة إيمانهم أخف منه عند مرقس، فلم يقل: «لا إيمان لكم» بل «أين إيمانكم؟» (٢٥).

+ الوصف مركّز، لا على السفينة، كما عند مرقس، بل على التلاميذ: «ركب سفينة ومعه تلاميذه» — «فأقلعوا» (٢٢) — «وهم سائرون» — «فكاد الماء يغمرهم» — وأصبحوا على خطر فدنوا منه فأيقظوه وقالوا «... (٢٣) «أعجبوا» (٢٥). فكل هذه التفاصيل تركّز الأضواء عليهم، لا على السفينة، كما الأمر هو عند مرقس. وهنا يظهر عند لوقا قصد لاهوتي سيزداد وضوحاً فيما بعد. وما عدا ذلك، فرواية لوقا تنتهي، شأن رواية مرقس، بتساؤل مسيحاني: «من تُرى هذا...؟». وأمر الايمان (٢٥) متشابه عندهما.

خصائص رواية متى

إطار المعجزة: لا تأتي المعجزة في إطار الأمثال، كما الأمر هو في الانجيلين الآخرين، بل بعد الخطبة على الجبل (٥ — ٧) التي تُظهر قدرة يسوع وسلطانه في الكلام والتعليم، وبعد معجزات تُظهر قدرته وسلطانه في العمل (٨)، تليها معجزات أخرى (٩). ويتخلّل عمله هذا الحاح اتباعه:

+ «يا معلّم، أتبعك حيثما تذهب»، «للثعالب أوكار...» (٨/ ١٩ — ٢٠).

+ «يا سيد، دعني أذهب أولاً وأدفن أبي»، «إتبعني...» (٨/ ٢١ — ٢٢).

+ لمتى: «إتبعني» — «فقام وتبعه» (٩/ ٩ — ١٣).

+ «الحصاد كثير... أطلبوا من ربّ الحصاد أن يرسل عمالاً...» (٩/ ٣٧ — ٣٨).

+ «دعا يسوع تلاميذه الاثني عشر وأعطاهم سلطاناً... وهذه أسماء الرسل..». (١٠). فلدينا إذاً التصميم الآتي:

— تعليم يسوع (٥ — ٧).

— ثلاث معجزات (٨/ ١ — ٧) تنتهي بشاهد كتابي: «أخذ أوجاعنا وحمل أمراضنا».

— اتّباع يسوع (٨/ ١٨ — ٢٢).

— ثلاث معجزات أخرى، الأولى تسكين العاصفة (٨/ ٢٣ — ٩/ ٨).

— إتّباع يسوع (٩/ ٩ — ١٣).

— تعليم يسوع (٩/ ١٤ — ١٧).

— خمس معجزات أخرى (٩/ ١٨ — ٣٤) تنتهي بطلب عَمَلة للحصاد (٣٥ — ٣٨).

— إتّباع يسوع (١٠/ ١ — ٤) وإرسال تلاميذ للتعليم والأعمال مثل يسوع (٥ — ١٤) وظروف وشروط ذلك (١٥ — ٤٢).

يبدو لنا، من خلال هذا التقسيم، إلحاحٌ كبير في اتّباع يسوع، وهو الجانب التعليمي في كل هذا الجزء (٥ — ١٠)، وتركيز على تأثير كلمته وأعماله في من يتبعه (٧/ ٢٨ — ٢٩، ٨/ ٢٧، ٣٤، ٩/ ٨، ٢٦، ٣١، ٣٣).

فكلام يسوع وتعليمه وأعماله موجّهة نحو تقوية الايمان، أكثر منها نحو إظهار شخصيّته وهويّته ومسيحانيته مباشرةً، وان لم يغب هذا البعد.

هذا ما يبيّنه لنا إطار المعجزة التي نحن بصددها. فهل رواية المعجزة نفسها تؤكّد الاتجاه التعليمي نفسه (Catéchèse) ؟ هذا ما نبحثه الآن.

رواية المعجزة وقصدها اللاهوتي: الجدير بالذكر أن رواية المعجزة بحسب متى تؤكد القصد اللاهوتي التعليمي نفسه. وتدل على ذلك الإشارات الآتية:

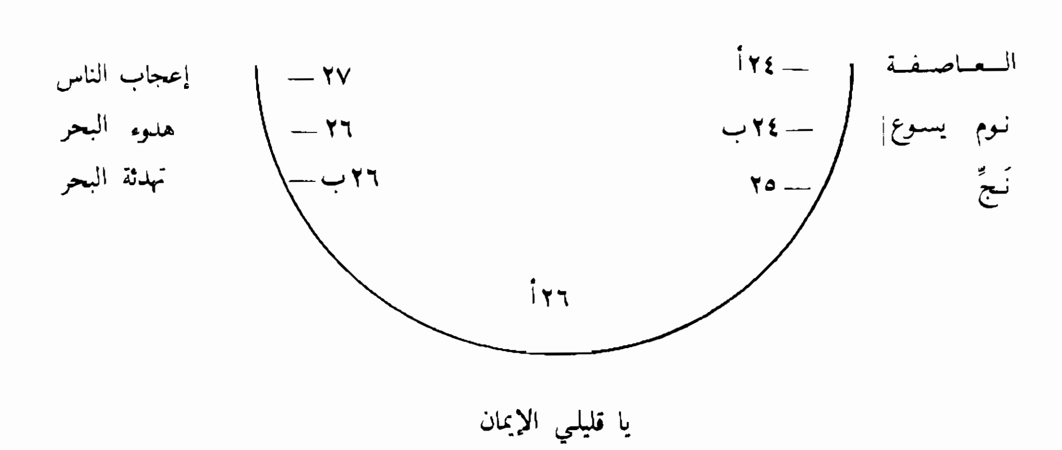
+ متى هو الوحيد الذي يذكر أن يسوع «أمر» بالعبور، «وركب السفينة فتبعه تلاميذه إليها» (١٨، ٢٣). فهو الأول في السفينة وبسلطته يأمرهم أن يتبعوه، فتبعوه فعلاً، كما فعل متى.

+ وعندما استغاثوا به، لم ينادوه كما جاء في مرقس ولوقا: «يا معلّم»، بل «ربّنا» (٢٥). فليس يسوع معلماً كمعلّمي اليهود العديدين، بل هو «الربّ» الذي يبادر إلى الدعوة، فيتبعه من يدعوهم. ثم أنهم صرخوا: «نجّ»، ومتى وحده يروي ذلك، إشارةً منه إلى قدرة الرب على خلاصهم.

+ إيمان التلاميذ قليل (٢٦)، لا معدوم (مرقس) أو غير ظاهر (لوقا). والتعبير (Oligopistoi) (Oligo) باليونانية يعني «قليل»، و (pistoi) يعني **«ايمان»** خاص بمتّى. والجدير بالذكر أن يسوع يأخذ على تلاميذه قلّة إيمانهم، إلّا أنه يثني على إيمان غير تلاميذه —كأصحاب المُقْعَد («رأى يسوع ايمانهم» ٩/ ٢) والمرأة المنزوفة («إيمانك شفاك» ٩/ ٢٢)**والأعمين** («فليكن لكما على قدر إيمانكما» ٩/ ٢٩) — بل إنه يثني على إيمان الوثنيّين— كقائد المائة («ما وجدت مثل هذا الايمان عند أحد في اسرائيل» ٨/ ١١) والمرأة الكنعانية («ما أعظم ايمانك» ١٥/ ٢٨)...

+ وكذلك، فإنّ الذين أُعجبوا بمعجزة يسوع، لم يكونوا التلاميذ، بل «الناس» (٢٧)، رغم أنه لم يشاهد المعجزة إلّا التلاميذ وحدهم، إذ لم تكن هناك إلّا سفينة واحدة (٢٣)، لا عدّة سفن، كما جاء في مرقس (٤ / ٣٦). فهؤلاء «الناس» هم غير المؤمنين به، البعيدون عن الله في انجيل متى (٥ / ١٣، ١٠ / ١٧، ٣٢، ٣٣، ١٦ / ١٣، ٢٣)، والمحتاجون إلى البشرى (٤ / ١٩، ٥ / ١٦، ١٩)... هنا أيضاً يلقي متى الضوء على غير تلاميذ يسوع. وهذا يمهّد للمعجزة التالية التي تُجرى عند الوثنيين.

+ وأما بنية رواية متى، فإنها تُبرز مكانة الإيمان (أو بالأحرى قلّة الإيمان) المرموقة. فالرسم الآتي يُظهر ذلك بصورة قاطعة:



يا قليلي الإيمان

لقد بنى متى نصّه على ثلاثة عناصر متقابلة (العاصفة / إعجاب الناس — نوم يسوع / هدوء البحر — طلب النجدة / تهديد البحر). وأما ذروة النصّ ومحوره وقمته ومفتاحه فهو موضوع ايمان التلاميذ.

بدا لنا في روايتي مرقس ولوقا أن محور النص مسيحاني (هوية يسوع: «من تُرى هذا...») وقد يكون موضوع الايمان مضافاً، في حين أن رواية متى تتمحور حول الايمان، أي أن القصد اللاهوتي الواضح هو تعليمي، أكثر منه مسيحاني، وإن لم يغب القصد المسيحاني عنها.

ويجدر بنا هنا أن نُظهر الفرق في الايمان بين مرقس ومتّى:

مرقس	متّى
— التلاميذ لا يفهمون (٦/ ٥١ — ٥٢. ٨/ ١٧ — ٢١).	— التلاميذ يؤمنون أخيراً بأنه ابن الله.
— وصف عدم الإيمان قبل القيامة (٤/ ٤).	— تمهيد للإيمان بعد القيامة، يجب تنمية هذا الإيمان الموجود، ولكنه يبقى ضعيفاً (١٦/ ٨، ٢٦، ١٤/ ٣١، ١٧/ ٢٠).
— إمّا ايمان كلّي / إمّا عدم ايمان.	— تحقيق الايمان في الحياة العملية، بدرجات.
— يسوع يمرّر من عدم الايمان إلى الإيمان.	— يسوع يربّي وينمّي الإيمان البدائي ليكون حيًّا.

علاقة المعجزة برواية يونان النبي

بعد أن توضّحت لنا خصائص كلّ إنجيلي في سرد معجزة تسكين العاصفة، يجدر بنا أن نقابلها برواية متقاربة، ألا وهي رواية يونان ١/ ٣ — ١٦. فبينهما تشابه جليّ. وثمة فرق بينهما نوضّحه على الشكل التالي:

يونان	الأناجيل الازائيّة
+ العاصفة عقاب عصيان يونان.	+ العاصفة رمز لقوى الشر والموت.
+ تهدأ عند الطاعة.	+ تهدأ عند أمر يسوع.
+ يونان ينام نوم المذنب.	+ يسوع ينام نوماً هادئاً.
+ يونان ينزل إلى قاع البحر.	+ يسوع يستيقظ ويقوم.
+ الحاضرون يخافون إله يونان.	+ التلاميذ يتعجّبون من يسوع رجل الله.

فمن الواضح أن هناك تأثيراً من رواية يونان في الانجيليين عندما رووا المعجزة. غير أن ذلك لا يعني إطلاقاً أن معجزة تسكين العاصفة لم تحدث، ولكن جلّ ما نقوله أنهم تأثّروا بالأسلوب القصصي وبصياغة سرد الرواية. على أنهم أضفوا عليها معنى واضحاً استبان لنا من خلال ما سبق من تحليل للنصوص ومن خلال هذا الجدول. **فعقليّتهم اليهودية أحضرت إلى أذهانهم رواية يونان، فاستعانوا بها متصرّفين بها بحسب قصدهم اللاهوتي الخاص.**

علاقة معجزة طرد الشياطين بتسكين العاصفة

تلي معجزة تسكين العاصفة — في الروايات الثلاث — معجزة أخرى، وهي طرد الشياطين عند الجراسيين وهم وثنيون، على الشاطئ المقابل (مر ٥ / ١ + / لو ٨ / ٢٦ + / متى ٨ / ٢٨ +). إن وضع هذه المعجزة بعد تسكين العاصفة أمر مقصود، له مغزاه اللاهوتي وهو الرسالة الأولى لدى الوثنيين.

ونتبيَّن هذا القصد اللاهوتي بشكل واضح عند متى ولوقا، إذ إنّ هناك سفينة واحدة فقط، وهو أقلّ وضوحاً عند مرقس الذي يشير إلى وجود عدّة سفن. فالسفينة التي تحمل يسوع وتلاميذه هي رمز للكنيسة التي تذهب إلى الرسالة عند الوثنيين، مع الفارق أن يسوع يظهر هنا وحده أمام الشياطين ويقهرهم — كما قهر العاصفة سابقاً. ومن بعده ستذهب الكنيسة إلى الرسالة، وتقهر هي أيضاً الشياطين والشر، بخوضها مياه البحر. صحيح أن رسالة يسوع عند الجراسيّين فشلت (متى ٨ / ٣٤)، إلّا أن الكنيسة ستنتصر في نهاية الأمر.

وللوصول إلى الوثنيّين، يجب عبور البحر والمرور بمياه الموت، إذ إن مياه البحر هي رمز، في العهد القديم، لقوى الشر والموت والشياطين[٥].

وعندما انتصر يسوع على البحر، انتصر على هذه القوى. فأشار بذلك إلى انتصاره الحقيقي على الصليب وإلى قيامته. لذلك يصرخ الشياطين في وجهه: «أجئت إلى هنا لتعذّبنا قبل الأوان؟» (متى ٨ / ٢٩)، أي قبل حدوث الموت / القيامة. فبإدخال هذا العنصر الجديد، يأخذ نوم يسوع في السفينة معنى جديداً. فليس هو نوم الإرهاق فقط، بل هو رمز أيضاً لموته. أمّا عبارة «قام وزجر الريح» (في الروايات الثلاث)، فهي إشارة إلى قيامته وانتصاره على كل القوى المعادية.

هكذا يتجلّى لنا قصدان لاهوتيان بفضل ارتباط المعجزتين: الرسالة والموت / القيامة. وهناك قصد لاهوتي ثالث واضح عند متى، وهو القصد التعليمي الملحوظ في المعجزة في إطارها، كما أسلفنا تبيانه. فالمعجزة تنتهي بسؤال: «من هذا...؟» (٢٧). والردّ على هذا السؤال يأتي على لسان الشياطين: «ما لنا ولك، يا ابن الله؟...» ـ٢٩). فكما رأينا أن التلاميذ هم «قليلو الايمان»، في حين أن «الناس» والوثنيين عظيمو الإيمان، هكذا نشاهد هنا انقلاباً في المعايير: فالمؤمنون لا يعرفون من هو يسوع هذا، إلّا أن الشياطين يعرفونه. فأراد متى أن يكشف في صيغة تعليمية شخصيّة يسوع للتلاميذ (في السفينة) وللوثنيّين (الجدريين)[٦].

٥. في العهد القديم، يسيطر الله على المياه في حادث البحر الأحمر وعبور نهر الأردن عند الخروج من أرض مصر والدخول في أرض الميعاد. راجع أيضاً المزمور ١٠٧ / ٢٣ — ٣٠. غير أن التلاميذ لم يستغيثوا بالله — بتلاوة المزمور مثلاً، بل بيسوع الذي سيطر على البحر، كما كان الله يسيطر عليه في العهد القديم.

٦. هذا الكشف التعليمي عن شخصية يسوع وارد أكثر

بين المعجزة ومعناها اللاهوتي

لقد أوضحنا أن المعجزة قد حدثت فعلاً. ولكن الانجيليّين رووها بطرق مختلفة، أي أنهم أضافوا إليها معنى لاهوتياً مختلفاً يمكن عرضه على الوجه التالي:

في البداية، مع مرقس (وهو الانجيل الأول)، تركّزت الرواية على المعجزة والإعجاب من صانعها وأمام سرّه. ان الاعجاب يخصّ الله عادةً، غير أنه يخصّ هنا شخص يسوع نفسه، تعبيراً عمّا يتركه من أثر في مشاهدي المعجزة. وهذا هو القصد اللاهوتي الأول، أي القصد المسيحاني الذي تبيّن لنا في تحليلنا للمعجزة.

وهناك قصد لاهوتي ثانٍ أدخله الانجيليّون، خصوصاً متى، وهو المعنى التعليمي الخاصّ بالإيمان. ينظر إليه مرقس بنظرة ما قبل القيامة: «أإلى الآن لا إيمان لكم؟» (٤ / ٤٠)، في حين أن متى ينظر إليه نظرة تعليمية تنسجم كل الانسجام مع روايته للمعجزة — بل هي مفتاح فهمها، مُظهراً إيمان الكنيسة بعد القيامة، وهو إيمان لم يكتمل بعدُ بسبب العواصف والرياح، أي قوى الشرّ التي تعاكس عملها.

وبالإضافة إلى القصدين السابقين، يُبرز ارتباطُ المعجزة بمعجزة طرد الشياطين دورَ الرسالة إلى الوثنيّين، تلك الرسالة التي تستدعي المرور بمياه الشرّ والموت، مرور الكنيسة بما مرّ به يسوع من آلام وصلب وموت، كما عبر الشعب اليهودي البحر الأحمر ليمرّ من أرض العبودية إلى أرض الميعاد.

هذا هو القصد اللاهوتي الثالث الذي أدخله الإنجيليّون على معجزة تسكين العاصفة. نستخلص من ذلك طريقة قراءة الأناجيل. فهناك الحدث من جهة، ومعناه أو قصده اللاهوتي من جهة أخرى. والحدث ومعناه متلازمان، لا يقبلان أية تجزئة في قراءة أي نصّ من الانجيل. فمن الخطأ قراءته لمعرفة ما حدث أو ما قيل، فالحدث تتكشف أبعاده من خلال معناه اللاهوتي. فإذا أخذنا معجزة تسكين العاصفة، فإنها لا تفيدنا شيئاً إذا فصلناها عن المعنى اللاهوتي الذي أراده الانجيليّون وأضفوه عليها. فليست الأناجيل تحقيقاً صحفياً أو سيرة يسوع المجرَّدة — كما سبق لنا أن قلنا — بل هي «لتؤمنوا بأن يسوع هو المسيح ابن الله، فإذا آمنتم نلتم باسمه الحياة» (يو ٢٠ / ٣١)، أي أنّ كل قول وفعل محمَّل معنًى لاهوتيًّا يفيد شخص يسوع المسيح وإيمان الذين يقرأون أو يسمعون كلمته.

لذلك ينبغي البحث دوماً عن معنى الحدث، ولا يكفي معرفة الحدث[٧].

وعلى نقيض ذلك، فإنّه من الخطأ أيضاً

من مرة في انجيل متى. فالكتبة يلمّحون إلى أنه الله، إذ يغفر الخطايا (٩ / ٣). ويسوع يدعو الخطأة (٩ / ١٣) فهو مخلّصهم، وهو العريس (٩ / ١٥) والخمر الجديدة (٩ / ١٧) وطبيب المرضى (٨ /

١٧)...

٧. وما الوعظ في نهاية الأمر إلّا توضيح معنى الحدث أو القول. وشتان ما بين ترديد الحدث أو القول وتفسيره بحسب قصده اللاهوتي! وما دراسة

البحث عن معنى الحدث، بمعزل عن الحدث نفسه. فهناك من يدّعي أن المعجزات مثلاً لم تحدث بالفعل، بل ابتدعها الانجيليّون ليُظهروا قصداً لاهوتيًّا. هذه النظرة غير صائبة، لأنّ **الانجيليين** لم يختلقوا الحدث، بل انطلقوا منه وأضفوا عليه معنى لاهوتيًّا.

إلّا أنه من الصعب معرفة ما حدث بالضبط. فهل قال يسوع: «أإلى الآن لا إيمان لكم؟» (رواية مرقس)، أم «أين إيمانكم؟» (لوقا)، أم «يا قليلي الإيمان؟» (متى)؟ لا نستطيع، بل لن نستطيع معرفة ما حدث بالفعل والحرف. فالإنجيليون يتصرّفون تصرفاً يذهلنا وبحريّة قد يستغربها البعض أو تجعلهم يدّعون التحريف. ولكن، كما قلنا مراراً، لا تهدف الأناجيل إلى سرد حدث على طريقة التحقيق الصحفي، بل الانجيليّون يتوخّون إظهار المعنى اللاهوتي الكامن في الحدث أو القول. وكما سنراه في سياق تحليلنا، فهم يقرأون الحدث أو يفهمون القول في ضوء موت / قيامة يسوع المسيح، كما أنهم يتوجّهون إلى بيئة حياتية معيَّنة (تعليمية أو إعلانية أو ليتورجية) من جهة أخرى، وسيتَّضح ذلك لاحقاً.

التطويبات

بعد دراسة معجزة من معجزات يسوع، نقوم هنا بدراسة حديث أو خطبة ليسوع. فهي فنّ أدبي مختلف عن المعجزة. ومبتغانا هو إظهار وجهات النظر المختلفة في فهم معنى التطويبات، فسنحاول هنا، على مثال دراسة المعجزة، إبراز العلاقة القائمة بين الحديث ومعناه اللاهوتي.

التطويبات والتعليم

ان التطويبات قد جمعتها الجماعات المسيحية الأولى، ثم دوّنها الانجيليّون. وهي تجمع كلمات تعليمية ليسوع. والسؤال هو: هل التطويبات موجز لتعليم من تعاليم يسوع، أم هي ردّ يسوع على أسئلة طرحها عليه اليهود؟ هل صرّح يسوع بالتطويبات دفعة واحدة، أم في مواقف مختلفة جمعها الانجيليّون فيما بعد؟.

لا يمكننا أن نبتّ في هذا الأمر بصيغة قاطعة، لأن الأناجيل، كما قلنا سابقاً، ليست تحقيقاً صحفيًّا أو كتاب تاريخ. وما يهمنا هنا هو أن نعدَّ التطويبات عرضاً شاملاً للمسيحية، عرضاً لحديث من أحاديث يسوع. ونورد هنا ثلاثة نصوص. الأول لمتى والثاني للوقا (التطويبات من جهة واللعنات من جهة أخرى) والثالث ما قد يكون النص الأصلي[8].

التطويبات بين حديث ليسوع ومعناه اللاهوتي: لقد وضع متى هذا الحديث على لسان يسوع، وهو قد «صعد الجبل» (٥ / ١)، في حين

الكتاب المقدس في نهاية الأمر إلّا تعلّم استنباط المعنى اللاهوتي الكامن في أي حدث أو قول.

٨. راجع النصّ المتوازي المرفق.

متى ٥

[١] صعد الجبل
[٣] طوبى لفقراء النفوس
فإن لهم ملكوت السموات
[٤] طوبى للودعاء فإنهم يرثون الأرض
[٥] طوبى للمحزونين
فإنهم يعزّون
[٦] طوبى للجياع والعطاش إلى البر
فإنهم يُشبعون
[٧] طوبى للرحماء
فإنهم يُرحمون
[٨] طوبى لأطهار القلوب
فإنهم يشاهدون الله
[٩] طوبى للساعين إلى السلام
فإنهم أبناء الله يُدعوْن
[١٠] طوبى للمضطَهدين على البر
فإن لهم ملكوت السموات
[١١] طوبى لكم
إذا شتموكم
واضطهدوكم
وافتروا عليكم كل كذب

من أجلي
[١٢] افرحوا وابتهجوا
فإن أجركم في السموات عظيم
فهكذا اضطهدوا الأنبياء من قبلكم

لو ٦

[١٧] نزل بهم فوقف في مكان منبسط
[٢٠] طوبى لكم أيها الفقراء
فإن لكم ملكوت الله
[٢١] ب طوبى لكم أيها الباكون
فسوف تضحكون
[٢١] أ طوبى لكم أيها الجياع الآن
فسوف تشبعون

[٢٢] طوبى لكم

إذا أبغضكم الناس ورذلوكم
وشتموا (اسمكم) (كم)
ونبذوه
كأنه عار
من أجل ابن الانسان
[٢٣] افرحوا في ذلك اليوم وابتهجوا
فإن أجركم في السماء عظيم
فهكذا فعل آباؤهم بالأنبياء

لو ٦	النص الأصلي جان ديبون (J. Dupont)
٢٤ لكن الويل لكم أيها الأغنياء فقد نلتم عزاءكم	طوبى للفقراء فإن لهم ملكوت السموات
٢٥ ب الويل لكم أيها الضاحكون الآن فسوف تحزنون وتبكون	طوبى للمحزونين فإنهم يُعزَّون
٢٥ أ الويل لكم أيها الشباع الآن فسوف تجوعون	طوبى للجياع (والعطاش) فإنهم يُشبعون
٢٦ الويل لكم	طوبى لكم
إذا أثنى عليكم جميع الناس	إذا أبغضكم الناس (ومنحوكم اسماً) (ونبذوكم وأهانوكم) كأنه عار من أجل ابن الانسان افرحوا وابتهجوا فإن أجركم في السموات عظيم
فهكذا فعل آباؤهم بالأنبياء الكذابين	فهكذا اضطُهد الأنبياء من قبلكم.

أن لوقا صوّره في «مكان منبسط» (٦ / ١٧). والمراد من هذا هو إظهار زاوية بارزة من حديث يسوع. ولم يُرد من حقيقة ما قاله واستهدفه إلّا الدمج بين الزوايا المختلفة، أو القراءات المختلفة. فنصّ لوقا يتّسم بالواقعية بمعنى أن حديث يسوع جرى في مكان منبسط ويتعلّق بأمور مادية وتكلم عن أشخاص هم بيننا: الفقراء / الأغنياء، الباكون / الضاحكون، الجياع / الشباع.

وأمّا قراءة متى فتتسم بالمثالية، إذ إنّ يسوع يتكلّم على الجبل وفي أمور روحية: فقراء النفوس، الجياع والعطاش إلى البر، أطهار القلوب، الودعاء، الرحماء، الساعين إلى السلام، المضطَهدين على البر. ويُنهي متى حديثه بهذه الوصيّة الروحيّة: «كونوا أنتم كاملين كما أن أباكم السماوي كامل» (٥ / ٤٨).

ومن المعلوم أن نزعة متى الروحية والمثالية ظاهرة أيضاً في انجيله في غير نصّ التطويبات: فلوقا يورد في الصلاة الربية طلبة «الخبز» على أنه الخبز المادي اليومي («أرزقنا كل يوم خبزنا كفافاً» لو ١١ / ٣)، في حين أن متى يُرَوْحِن هذه الطلبة («أرزقنا اليوم خبزنا الجوهري» متى ٦ / ١٠)، بحسب ترجمة جائزة للنصّ اليوناني تدلي بمعنى «خبز الكلمة»، أو «خبز الأفخارستيا»، أو «خبز الوليمة السماوية الأخيرية». فالرَّوْحَنَة هذه هي موقف «القلب»، تمثّلاً بيسوع نفسه: «الوديع والمتواضع القلب» (متى ١١ / ٢٩).

إن حديث متى حديث تعليمي (كما هو الحال في معجزة تسكين العاصفة) يتناول تفاصيل الحياة المسيحية كما يجب على الناس أن يحيوها، وهذا هو أمر الخطبة على الجبل بمجملها (٥ — ٧). وأمّا حديث لوقا فهو إعلاني، يعلن فيه يسوع البشرى (الانجيل)، أكثر منه تعليمي يربّي فيه الإيمان. لذلك يخاطب يسوع سامعيه: «طوبى لكم» — «الويل لكم»، ولا «لهم».

وإذا قارنّا هاتين الروايتين بالرواية الأصلية المقترحة، استخلصنا ما كان يقصده يسوع. فالنص الأصلي قد يوحي بإعلان ملكوت السماوات الذي يأتي بعدله وسلامه ومحبته، مما يترتّب عليه ألّا يكون هناك فقراء ولا محزونون ولا جياع ولا عطاش. لذلك يعدّهم يسوع سعداء («طوبى»). فكأن يسوع ينطلق من الأوضاع الاجتماعية حيث الفقر والحزن والجوع والعطش، ويعلن، في وسط هذه الأوضاع، قدوم ملكوت السماوات، كما أنه يعلن التطويبات أكثر مما يطلب إنكار الزهد بالنفس مثلاً.

ولقد أضفى لوقا معنى مسيحانيًّا على قدوم الملكوت هذا. فيسوع هو الذي يأتي بالملكوت، والملكوت قد أتى فعلاً كما يقول يسوع نفسه: «إنّ ملكوت الله هو فيكم» (لو ١٧ / ٢١). هذا وقد أنبأ به يوحنا المعمدان السابق: «قد اقترب ملكوت السماوات» (متى ٣ / ٢). فالتركيز هنا ليس على الملكوت فقط، بل أيضاً وخصوصاً على من يأتي به، ألا وهو شخص يسوع (راجع رد يسوع على تلميذي يوحنا المعمدان: «أخبرا يوحنا بما سمعتما ورأيتما، فإن العمي يبصرون...» لو ٧ / ١٨—٢٣). وليست الأوضاع الاجتماعية المذكورة نتيجة لأحوال اجتماعيّة سيّئة، بل نتيجة لاختيار التلاميذ السير وراء يسوع، فوضعهم هذا الاختيار

في حالة الفقر والحزن... والاضطهاد. لذلك يستخدم لوقا ضمير المخاطبة: «أنتم» — «لكم». وكذلك يستخدمه متى في التطويبة الأخيرة، فيوضح أنها بسبب يسوع والانتماء إليه شخصيًّا: «طوبى لكم إذا شتموكم... من أجلي» (١١ — «من أجل ابن الإنسان» لدى لوقا والنص الأصلي).

نستخلص من هذا التحليل السريع القصد اللاهوتي الكامن في التطويبات: البعد المادي الواقعي / الروحي المثالي، الاجتماعي / المتعلّق باختيار يسوع، التعليمي / المسيحاني. وكان يسوع يقصد كل ذلك، فروى كل من متى ولوقا (والنص الأصلي) جزءًا مما صرّح به يسوع وأعلنه. وكما أسلفنا القول، فإن القراءة السليمة لا تكتفي بقراءة الحديث كما هو ظاهر، بل تتعدّى المعنى الحرفي في سبيل المعنى اللاهوتي.

سبب الاختلافات بين النصوص

بعد إلقاء نظرة على هذين النصّين من الانجيل، باستطاعتنا التساؤل: ما هي العناصر التي تسبب الاختلافات اللاهوتية بين النصوص؟ نجمع هنا أهم الأسباب:

١) السبب الجغرافي:

إذا أخذنا مَثَل يسوع عن البيت المبني على الصخر، وجدنا فرقاً بين روايتَي متى ولوقا يعود إلى اختلاف البيئة الجغرافية:

+ متى: «رجل عاقل بنى بيته على الصخر. فنزل المطر وسالت الأودية وعصفت الرياح» (٧ / ٢٤).

+ لوقا: «رجل بنى بيتاً فحفر وعمّق الحفر، ثم جعل الأساس على الصخر. فلمّا طمى السيل اندفع النهر...» (٦ / ٤٨).

فمن الواضح أن البيئة الجغرافية التي حدَّدها متى بيئة فلسطينيّة: البناء على الصخر، السيول، والرياح. في حين أن البيئة التي وضعها لوقا مختلفة: الحفر العميق، ارتفاع النهر واندفاعه، حتى إنّ بعض المفسّرين تساءلوا هل كانت البيئة مصريّة. هكذا نلاحظ أن اختلاف البيئة الجغرافية يؤدّي إلى اختلاف في طريقة سرد حديث يسوع أو عمله.

٢) السبب التاريخي:

هناك عقليّة اليهود الساميّة وعقلية اليونانيّين. فيوحنا الإنجيلي صاغ إنجيله بلغة عصره وفلسفته (النصف الثاني من القرن الأول الميلادي، وقد ظهر إنجيله ما بين السنة ٩٠ و ١٠٠)، المتشبّعة بفلسفة «العرفان» (Gnose) و «الثنائية» (Dualisme). لذلك أظهر التضادّ بين النور والظلمة، وبين الحقيقة والكذب، وبين الروح والجسد الخ.. إلّا أن الأناجيل الإزائيّة أكثر تشبّعاً بالعقلية الساميَّة السائدة في النصف الأول من القرن الأوّل، والظاهرة في الصور والتشابيه والرموز... وهكذا فإن البيئة التاريخية تؤثِّر في طريقة عرض أقوال يسوع أو أعماله.

٣) التوجّه إلى جمهور معيّن :

يوجِّه كل من الانجيليّين إنجيله إلى جمهور معيَّن . فمتى مثلاً يقصد اليهود ، ولذلك نجد إنجيله مفعم بالشواهد الكتابيّة ، في حين أن يوحنا يقصد اليونانيين خاصةً ، وإذا قارنّا بين روايتي الصلاة الربيّة عند متى ولوقا ، لاحظنا أن متى يستهلُّها بالتعبير الكتابي : «أبانا الذي في السموات» (٦ / ٩) ، في حين أن لوقا يصيغها متأثراً ببولس الذي كان يتوجّه إلى الوثنيين : «أيها الآب» (١١ / ٢) .

٤) الفنون الأدبية :

يشكّل الانجيليّون نصوصهم طبقاً للفنّ الأدبي الذي يستخدمونه . فروايةُ مَثَلٍ من أمثال يسوع لها أسلوبها الأدبي المختلف عن أسلوب المعجزة ، أو الخطبة ، أو الرواية . وللرواية نفسها أشكالٌ أدبية متعدّدة . فرواية دعوة (دعوة التلاميذ مثلاً) تختلف عن رواية ظهور الله (العماد ، التجلّي ، ظهورات المسيح القائم) ، أو رواية الآلام (جتسماني ، الجلجلة) أو رواية الطفولة . فلكلّ نوع من أنواع الرواية هذه قالب معيّن وأسلوب معيّن . وبالتالي فإنّ طريقة سرد رواية الطفولة (حيث تقوم الروايات الشعبية بدورها) تختلف عن سرد قصة الآلام (بطابعها التفصيلي الدقيق) ، أو القيامة (التي تفوق الوصف الطبيعي)...

كل هذه العناصر الأدبيّة **تؤثّر اذاً** في عرض أقوال يسوع أو أعماله .

٥) شخصية المؤلّف وأسلوبه :

يبدو مرقس روائيًّا رائعاً يتّسم بالواقعية ، كأنه يرى الحدث الذي يرويه . وأمَّا متى فهو عشّار متأثِّر كل التأثير بالكتاب المقدس . وأمَّا لوقا الطبيب والمؤرِّخ فإن عقليته متأثِّرة باليونانيين . وتظهر في انجيله الشفقة والرحمة ، كما أن للعنصر النسائي مكانة كبيرة في إنجيله . وأمَّا يوحنا الحبيب فهو شاهد لاهوتي ، ثاقب النظر إلى عمق سرّ يسوع ، وقد أمال رأسه على صدره . هكذا يصوغ كل انجيلي انجيله بشخصيته وأسلوبه .

٦) القصد اللاهوتي :

إنّ تحليلنا للعاصفة وللتطويبات أظهر لنا بوضوح تأثيرَ اختلاف وجهة النظر اللاهوتيّة في عرض أقوال يسوع وأعماله . ويمكن إضافة مثلَين آخرَين : الأول أن متى يصف أعمَيين ، في حين أن مرقس ولوقا لا يصفان إلّا أعمى واحداً (متى ٢٠ / ٢٩ + ومر ١٠ / ٤٦ + ولو ٨ / ٣٥ +) ، كما أن متى يشير إلى **ممسوسين ، لا إلى ممسوس** واحد (متى ٨ / ٢٨ + ومر ٥ / ١ + ولو ٨ / ٢٦ +) ، وهدف متى اللاهوتي من وراء ذلك هو إظهار اشتراك اليهود والوثنيين في الخلاص .

وفي مثل ضربه يسوع ، وهو مثل المدعوّين المتخلّفين عن الدعوة ، يقول لوقا : «صنع رجل عشاء فاخراً» (لو ١٤ / ١٦) ، وربّما هو كلام يسوع الأصلي ، في حين أن متى يقول : «ملك أولَمَ في عرس ابنه» (متى ٢١ / ٢) ، مُضفياً معنى مسيحانيًّا واضحاً ، أي أنّ الله الآب

(الملك) دعا إلى وليمة عرس يسوع المسيح (الابن).

فكل هذه الأمثلة وغيرها تبيّن، بصورة واضحة وجليّة، الاختلافات في طريقة سرد أعمال يسوع أو أقواله، بحسب القصد اللاهوتي الخاص بكل إنجيلي.

٧) البيئات الحياتية :

(بالألمانية : Sitz im Leben — بالفرنسية : (Milieux de vie لقد أظهر المفسّرون ثلاث بيئات حياتية مختلفة نَمَت فيها الروايات الشفهيّة التي سبقت التدوين الكتابي للأناجيل : البيئة الاعلانية (إعلان سرّ يسوع المسيح) والتعليمية (تربية إيمان المسيحيين) والليتورجية (الاستعداد للعماد وممارسة الأفخارستيا). وسيدور موضوع الباب المقبل على هذه البيئات الحياتية لأهميتها القصوى في تكوين الأناجيل.

فالاختلافات الواردة في النصوص الانجيلية لا تعود إلى أيّ لون من ألوان التحريف في أقوال يسوع أو أعماله. بل إلى قصد يقصده الإنجيليّون هو بمثابة أسباب خارجية (البيئة الجغرافية، الجمهور المقصود، الفنون الأدبية، البيئات الحياتية. القصدُ اللاهوتي) كما تعود إلى الإنجيليين أنفسهم، أي إلى أسباب داخلية (البيئة التاريخية والأسلوب الشخصي) ولقد وعى الانجيليّون ذلك كل الوعي، حين دوّنوا الروايات الشفهية.

الباب الثاني

تاريخ تكوين الأناجيل

إنّ ما سبق من تفسير بسط أمامنا أسئلة عديدة عن تكوين الأناجيل، خصوصاً الإزائية منها. لذلك نتطرق في هذا الباب إلى تاريخ التكوين: كيف نشأت الأناجيل؟ أين نشأت؟ من أنشأها؟ وكيف دُوِّنت؟ فنحن في هذا الباب على مستوى تاريخي، وقد كنّا في الباب السابق على مستوى تفسيري لبعض النصوص.

وإذا أردنا أن نلخّص باختصار أهم مراحل تكوين الأناجيل، بدا لنا أن ثمة ثلاث مراحل:

١ — مرحلة يسوع الناصري.

٢ — المرحلة الشفهية: روايات شفهيّة بحسب «البيئات الحياتية» على وجه خاصّ.

٣ — المرحلة الكتابية: الأناجيل الأربعة المعروفة.

إلّا أن ما وصل إلينا واعترفت به الكنيسة واعتمد عليه الايمان المسيحي هو المرحلة الثالثة. وانطلاقاً منها، يمكن الصعود إلى المرحلة الثانية فالأولى. وتقتصر دراستنا، في هذا الباب، على المرحلة الشفهية والكتابية، على أن نعالج المرحلة الأولى في الباب الثالث.

المرحلة الشفهيّة للأناجيل

نشأت بين الجماعات المسيحية الأولى روايات شفهيّة لأقوال يسوع وأعماله والأحداث المرتبطة به، كما أن بعض الوحدات تجمّعت فيها، فتسلّمها الإنجيليّون وجمعوا هذه المعطيات السابقة، فنظّموها وأضافوا إليها، كل واحد بحسب أسلوبه الشخصي وقصده اللاهوتي وميزات الجمهور الذي يكتب إليه...

وقد ظهرت هذه الروايات الشفهية والوحدات الأدبية في البيئات المسيحية الثلاث التي سبق أن ذكرناها: الليتورجية والتعليمية والاعلانية (أو الإرسالية) ولقد تحدّث عنها لوقا في أعمال الرسل، حين صوّر الجماعة المسيحية الأولى تواظب على

«كسر الخبز والصلوات» و«تعاليم الرسل» (رسل ٢ / ٤٢)، والرسل أنفسهم «يشهدون لقيامة الرب يسوع» (رسل ٤ / ٣٣).

في البيئة الحياتية المختلفة — مثلاً عندما كان الرسل يعلّمون الشعب أو يعلنون بشارة المسيح أو يعدّون للعماد ويمارسون كسر الخبز — كان المؤمنون يسألون الرسل **ما قاله** يسوع أو فعله، فكان الرسل يتذكّرون أقوال يسوع وأعماله التي عايشوها[9].

ولنتناول كل بيئة على حدة، بهدف توضيح معالمها الرئيسية:

البيئة الحياتية الليتورجية

عرفت الكنيسة الأولى أنواعاً من الاجتماعات الليتورجية. أهمها العماد والافخارستيا[10].

العماد: إن أسفار العهد الجديد — ما عدا الأناجيل التي نحن بصددها — غالباً ما تروي عماد من قبلوا البشارة، أمثال خازن ملكة الحبش عن يد الشماس فيلبس (رسل ٨ / ٢٦+)، وبيت قرنيليوس عن يد بطرس (رسل ١٠ / ٤٤+) وغيرهما. ومن المعروف أن ثمة ترانيم للعماد (اف ٥ / ١٤ و١ طيم ٣ / ١٦ و١ بط ١ / ٣ — ٥ و٢ / ٢٢ — ٢٥ و٣ / ١٨ — ٢٢ و٥ / ٥ — ٩). فكان العماد من المحاور الرئيسية لحياة الكنيسة الناشئة.

ففي هذه البيئة الحياتية. كان الموعوظون، الذين يستعدّون للعماد. يطرحون أسئلة جعلت الرسل الذين عايشوا يسوع يستمدّون من ذكرياتهم ما قاله الربّ في هذا المضمار. فتذكّروا وصيته لهم بأن يعمّدوا، ووضعوا على لسانه مثل هذا القول الذي يبرّر مراسيم العماد:

«عمّدوهم باسم الآب والابن والروح القدس» (متى ٢٨ / ١٩).

فمن الواضح أن تذكُّرهم لهذا القول يعود إلى البيئة الحياتية العمادية الواردة في خطبة بطرس الأولى بعد العنصرة مثلاً: «توبوا، وليعتمد كل منكم باسم يسوع المسيح لتُغفر خطاياكم، وينعم عليكم بالروح القدس» (رسل ٢ / ٣٨).

وربّما كان في نشأة الكنيسة تيّاران أو تقليدان، أحدهما يعمّد «باسم يسوع المسيح»، والآخر «باسم الآب والابن والروح القدس». إلّا أنّ التيّار الثاني فرض نفسه نهائيًّا.

وكذلك، فإن كلام يوحنا المعمدان في يسوع قد تذكّره الرسل في إطار عمادي دون شك: «رأيت الروح ينزل كأنه حمامة فيستقرّ عليه... ان الذي ترى الروح ينزل عليه ويستقرّ، هو ذاك الذي يُعمّد في الروح القدس» (يو ١ / ٣٢ — ٣٣)[11].

٩ وقد وعدهم يسوع من قبلُ بأن الروح القدس سوف يذكّرهم بجميع ما قاله لهم (يو ١٤ / ٢٦) ويشرح لهم كل ما حدث فيرشدهم إلى الحقّ كلّه (يو ١٦ / ١٣).

١٠. وكذلك صلوات الجماعة المسيحية من ابتهالات وقبلة مقدسة ووضع اليد لنيل الروح القدس أو للارسالات أو للخدمة.

١١. راجع رواية متى ولوقا «يعمّدكم في الروح القدس

فهذا تقليد ثالث يورد الروح القدس (والنار) وهو مرتبط مباشرة بالعنصرة.

وأما كلمة يسوع لينقوديمس: «ما من أحد يمكنه أن يدخل ملكوت الله إلّا إذا ولد وكان مولده من الماء والروح» (يو ٣ / ٥). فهي أيضاً قد نشأت في إطار عمادي. وليس من المستبعد أن يكون يوحنا الانجيلي قد أضاف كلمة «الماء» للدلالة على أن الولادة بالروح التي ينادي بها يسوع لا تتم إلّا بالعماد بالماء. فهذه الأمثلة وغيرها في الأناجيل تُثبت البيئة الحياتية العمادية في تكوين نصوص الأناجيل شفهيًّا ثم كتابيًّا.

كَسْرُ الخبز: إنّه لمن المعروف في الكنيسة الناشئة أنها كانت تقوم بـ «كسر الخبز» الذي كان يتم أساساً في المنازل، يرأسه الرسل (رسل ٢ / ٤٢ و ٤ / ٢٤ — ٣٠ و ١ قور ١٠). ومما لا شكّ فيه أن المشتركين في هذه الاجتماعات طرحوا أسئلة على الرسل لتوضيح ما يفعلونه ويقولونه فيها. فما كان على الرسل إلّا أن يُرجعوا الممارسة إلى شخص يسوع نفسه، عندما قدّس الخبز والخمر ليلة آلامه في عشاء الفصح. فرواية هذا التأسيس تأثّرت باجتماعات كسر الخبز، وتحدّدت ملامحها وسرد تفاصيلها في هذا الاطار الحياتي. ويمكننا أن نعتبر أن نصوص معجزتي تكثير الخبز (مثلاً متى ١٤ / ١٩ + و ٢٦ / ٢٦ +)، وخطبة يسوع في خبز الحياة (يو ٦ / ٢٢ +) قد تأثّرت بهذه البيئة الحياتية[١٢] للردّ على أسئلة المشتركين ولشرح معنى كسر الخبز ولتوضيح معنى أكل جسد المسيح وشرب دمه، اعتماداً على توصية يسوع نفسه: «إصنعوا هذا لذكري» (لو ٢٢ / ٢٠)[١٣].

هكذا نرى أهمية البيئة الحياتية الليتورجية وأثرها في تكوين بعض نصوص الأناجيل. نحلّل الآن البيئة التعليمية.

البيئة الحياتية التعليمية

نقرأ في أعمال الرسل أن المؤمنين كانوا يواظبون على «تعاليم الرسل» (رسل ٢ / ٤٢). فهناك إذاً بيئة حياتيّة معيّنة، وهي أولئك المؤمنون الذين، بعد عمادهم فدخولهم الكنيسة، يتعلمون مضمون إيمانهم، لا من خلال الكتاب المقدس (العهد القديم) فقط، بل يستفسرون أيضاً من الرسل عن حياة يسوع المسيح من أقوال وأعمال.

فهذه البيئة الحياتية للكنيسة الناشئة هي البيئة «التعليمية».

ونجد صورةً واضحة عنها في سفر أعمال الرسل في قصة فيلبس وخازن ملكة الحبش (٨ / ٦ — ٤)، حيث إن فيلبس لم ينطلق في كلامه على يسوع المسيح من حدث العنصرة مثلاً (البيئة

والنار» (متى ٣ / ١١ ولو ٣ / ١٦، مرقس: «يعمّدكم في الروح القدس» (١ / ٨).

١٢. في مثل مر ٦ / ٤٠: «رفع عينيه نحو السماء، وبارك، وكسر الأرغفة، ثم جعل يعطي تلاميذه» فقد استعان مرقس بالتقاليد الواردة في اجتماعات «كسر الخبز» «وقصّ معجزة» «تكثير الخبز» بالطريقة نفسها.

١٣. ينفرد لوقا بذكر هذه الكلمة، فضلاً عن بولس (١ قور ١١ / ٢٥).

«الإعلانية»)، بل من نص من الكتاب المقدّس، من سفر أشعيا (٥٣ / ٧ — ٨)، يفسّره للخازن على أنه نص يتنبّأ بشخص يسوع المسيح (البيئة «التعليمية») فيعلن هكذا البشرى.

وفي الأناجيل نفسها صور مماثلة للبيئة التعليمية، في مثل تفسير يسوع لنبوءة أشعيا (٦١ / ١ — ٢ : «روح الله نازل عليَّ...»)، مطبِّقاً إيّاها عليه : «اليوم تمّت هذه الآية التي تُليت على مسامعكم» (لو ٤ / ١٧ — ٣٠). وحدث مثل هذا الأمر في الحديث الذي دار بين يسوع القائم وتلميذي عماوس، عندما «أخذ يفسّر لهما ما يعنيه مما ورد في جميع الكتب من موسى إلى سائر الأنبياء» (لو ٢٤ / ٢٧). فهذان المثلان متأثّران بلا شكّ بالبيئة التعليمية. فمن المحتمل أن يكون المؤمنون الجدد قد طرحوا على الرسل أسئلة حول النصوص الكتابية التي تقصد يسوع، فكان الرسل يتذكّرون ما قاله (أو فعله) يسوع في هذا الصدد.

فبوجه عام كان المؤمنون يسألون والرسل يجيبون. كان المؤمنون، انطلاقاً من تساؤلاتهم واهتماماتهم اليوميّة، يسألون الرسل هل يجب دفع الجزية مثلاً، أو ممارسة الصوم والصدقة... وأين يجب عليهم أن يصلّوا، وهل يحقّ لهم أن يعاشروا الخطأة والزناة، وهل بمقدورهم أن يطلّقوا، وكيف عليهم أن يفهموا العلاقات العائلية، وما هي الحياة الأبدية ونهاية الأزمنة ومجيء ابن الانسان... كما أنّ المؤمنين كانوا يسألون الرسل كيف كان يسوع يتصرّف مع الأطفال والعشارين والوثنيّين والسلطات الدينية والمدنية، بالأموال والممتلكات والجنس. فكان التلاميذ يجيبون عليهم ما يتذكّرونه من أقوال يسوع الناصري وأعماله، علماً بأنه وعدهم بأن الروح القدس سيذكّرهم بكل ما قاله لهم (يو ١٤ / ٢٦). فكانت حينذاك تطفو إلى ذاكراتهم حِكَم يسوع، التي تتعلّق بأسئلة المؤمنين.

ولم تقتصر البيئة التعليمية على أسئلة المؤمنين، بل كانت تتعدّاها وتبغي اتّخاذ موقف صريح تجاه شخص يسوع المسيح. فعلى سبيل المثال، في رواية خيانة يهوذا وسؤال التلاميذ ليسوع : «هل أنا؟» (متى ٢٦ / ٢٢ و ٢٥)، هناك دعوة صريحة لتوضيح موقف المؤمن من المسيح. والدعوة نفسها نلحظها في انكار بطرس ليسوع وهرب التلاميذ عند اعتقاله، وهما شك فيه (متى ٢٦ / ٣١ و ٣٣) وقلّةُ إيمان (متى ١١ / ٦ و ١٣ / ٢١). وكذلك سؤال يسوع لتلاميذه : «من أنا على حدّ قولكم أنتم؟ «—ولا فقط مَنْ هو ابن الإنسان على حدّ قول الناس؟— موجَّه إلى أن يتّخذ المؤمن موقف بطرس : «أنت المسيح ابن الله الحيّ» (متى ١٦ / ١٣ — ١٦). وأيضاً في تعليم يسوع الخاص بالسهر وانتظار «رب البيت» (رواية مر ١٣ / ٣٥)، يشخّص متى هذا الربّ قائلاً «ربكم» (متى ٢٤ / ٤٢)، داعياً هكذا المؤمنين إلى أن يسهروا وينتظروا السيد المسيح.

وهناك أيضاً «الاعترافات الإيمانية» (Confessions de foi) في الأناجيل، إذ إنّ الانجيليّين يضعون على لسان من عايشوا يسوع اعتراف إيمان الجماعة المسيحيّة بعد الفصح. فلقد رأينا في معجزة تسكين العاصفة أن متى استبدل كلمة «يا معلم»، التي أوردها مرقس ولوقا،

باللقب الإيماني «ربّنا»، وهو اللقب الذي عبّر به المسيحيّون الأولون بعد القيامة عن إيمانهم بيسوع المسيح الممجَّد. فليس من المتوقع أن يكون التلاميذ عند العاصفة قد سمَّوا يسوع «الرب»، لأنّ إيمانهم به كربّ وسيّد ومسيح وإله تدرّج تدرجاً، ولم يعوا في بداية الأمر من هو يسوع بالضبط. وكذلك في قول نتنائيل ليسوع: «أنت ابن الله. أنت ملك اسرائيل» (يو ١ / ٤٩). وفي إعلان بطرس عن حقيقة يسوع «أنت المسيح ابن الله الحيّ» (متى ١٦ / ١٦)[١٤]، «أنت ابن الله حقاً» (متى ١٤ / ٣٣)... فمن الواضح أن الرسل عندما كانوا يعلّمون المؤمنين الجدد، كانوا يحثّونهم على أن يعترفوا بإيمانهم بألوهية يسوع المسيح. فوضعوا على لسان معاصري يسوع إيمان الجماعة المسيحية بعد الفصح[١٥].

إن الاعترافات الإيمانيّة هذه كانت تحمل الرسل على أن يحثّوا المؤمنين على الارتباط الوثيق بشخص يسوع القائم من الموت. كانت الاضطهادات تفرّقهم وتقطع العلاقة بينهم وبينه — «سأضرب الراعي، فتتبدّد خراف القطيع» — إلّا أنه أضاف: «ولكن بعد قيامتي أتقدّمكم إلى الجليل» (متى ٢٦ / ٣١ — ٣٦)، فيسوع يصبح ثانيةً ذلك الراعي الذي يجمع قطيعه ويتّحد به: «فيكون هناك رعية واحدة وراعٍ واحد» (يو ١٠ / ١٦).

في هذا الصدد، أثّرت البيئة التعليمية في الأناجيل، حين نراها تصوّر يسوع داعياً تلاميذه إلى اتباعه، ومرامها أن تشير إلى ان هذه الدّعوة حالية للمستمعين إلى الكلمة. وما قلناه في أقوال يسوع ينطبق على أعماله أيضاً. فكان المؤمنون يطالبون الرسل بالكلام على جميع تفاصيل حياة يسوع: من العماد والتجلّي والتجارب والعلاقة مع أهله والمحاكمة وحمل الصليب والموت والدفن والقيامة والظهورات...

هذه هي البيئة الحياتية التعليمية التي ساهمت في تكوين الأناجيل — شفهياً أولاً ثم خطيًّا — مساهمة بالغة الأهمية.

البيئة الحياتية الاعلانية

أمّا بخصوص البيئة الحياتية الإعلانية، فإننا نتبيّن خطوطها من أعمال الرسل: كان الرسل يعلنون البشارة بيسوع في البيئات اليهوديّة الوثنيّة، وهذا مسجّل في سفر أعمال الرسل خصوصاً، وفي الخطب والمحاكمات نفسها. وفي الأناجيل نرى صدى لهذا الإعلان في المعجزات من جهة، وفي المناظرات بين يسوع ومعاصريه حول رسالته من جهة أخرى.

ليس هدف المعجزات في الأناجيل إظهار ما هو خارق للطبيعة — كما الأمر هو في الأناجيل المنحولة التي تبالغ فيها — بل إظهار ألوهية يسوع

١٤. متى وحده يورد لقب «ابن الله الحي»، لا مرقس ولا لوقا. ونحن نعرف أن يسوع كان يرفض أن يسمّيه الناس «المسيح»، مخافة أن يفهموا هذا اللقب بالمعنى السياسي الانتصاري.

١٥. في الأناجيل المنحولة (Apocryphes) مبالغة في الألقاب، في حين أنها تأتي في حينها في الأناجيل.

من جهة. والدّعوة إلى الإيمان به من جهة أخرى.

ان جواب يسوع لتلميذي يوحنا المعمدان يوضّح معنى المعجزات: «إذهبا وأخبرا يوحنا بما سمعتما ورأيتما: «فإن العمي.. والكسحان... والبرص... والصمّ... والموتى... والفقراء يُبشَّرون. وطوبى لمن لا يشكّ فيَّ» (لو ٧ / ٢٢ — ٢٣).

فالغاية من سرد معجزات يسوع هو إعلان الخلاص الجسدي والروحي، ولا سيما الخلاص من الخطيئة. «غُفِرَت لك خطاياك» (متى ٨ / ٢)؛ ويهدف السرد كذلك إلى تبشير العالم بالملكوت، ولا سيما الفقراء: «إذا كنتُ بإصبع الله أطرد الشياطين، فقد وافاكم ملكوت الله»، (لو ١١ / ٢٠)، وحثَّ المستمعين على أن يؤمنوا بشخص المسيح[١٦].

وعند متى نظرة عميقة للمعجزات، إذ انه يختم مجموعة من ثلاث معجزات ليسوع بهذا القول الكتابي: «أخذ أسقامنا وحمل أمراضنا» (متى ٨ / ١٧ وأش ٥٣ / ٤). فيظهر يسوع مخلصاً لكلّ البشر، لا بمعجزاته فقط، بل بحمله خطيئة العالم (يو ١ / ٢٩)، أي بذبيحته على الصليب وبقيامته منتصراً على الموت. فالمعجزات تعلن في نهاية الأمر سرَّ يسوع المسيح في حدث موته وقيامته، داعيةً إلى الإيمان به.

وأما المناظرات (Controverses) التي دارت بين يسوع واليهود، فهي صدى للمناظرات بين المسيحيّين الأولين مع اليهود والوثنيين، وللمحاكمات التي حوكم فيها تلاميذ يسوع: «طوبى لكم إذا أبغضكم الناس ورذلوكم وشتموا الاسم...» (لو ٦ / ٢٢ — ٢٣). ففي الإعلان الأول كان الاعتماد في المناظرات على الكتب المقدّسة التي تتنبَّأ بالمسيح وآلامه وانتصاره (راجع خطب أعمال الرسل واستشهاد اسطفانس)[١٧] ومن ثـمّ عاد الرسل إلى المناظرات بين يسوع واليهود واضطهادهم له، بل قتلهم له، بهدف مساعدة إيمان المؤمنين وإعلان البشارة لغير المؤمنين.

وفي منتصف القرن الأول، ظهرت بدعة تنفي ألوهية يسوع قبل رسالته، مدّعية أنّه أصبح إلهاً، لأنه لم يكن إلهاً. ومن هنا أدخل متى ولوقا «انجيل الطفولة» للدفاع عن ألوهية يسوع منذ ميلاده، بل منذ البشارة به.

هذه هي البيئة الحياتية الإعلانية التي أثَّرت في تداول الروايات الشفهيّة ثـم في تدوين الأناجيل خطيًّا.

الخلاصة

بعد أن بحثنا في البيئات الحياتية الثلاث التي

١٦. تضع الأناجيل الإزائية الايمان شرطاً، قبل أن يقوم يسوع بالمعجزة. ويضعه يوحنا نتيجةً بعد أن يقوم بها يسوع.

١٧. من هذه النبؤات «عبد يهوه» (رسل ٣ / ٢٦، ٤ / ٢٧، ٣٠) «القدوس البارّ»، (٣ / ١٤ و٧ / ٥٢ و٢٢ / ١٤) و«رئيس الحياة» (٣ / ١٥ و٥ / ٣١)... فضلاً عن المزامير، خاصة ٢٢ و٦٩ و١١٠ و٣٤ و٤١...

كوّنت الأناجيل شفهيًّا ثم خطيًّا، نتساءل هل كانت منفصلة بعضها عن بعض أم متداخلة في سرد بعض أقوال يسوع وأعماله.

لقد رأينا تداخلها في تسكين العاصفة. فقد تداخلت البيئة التعليمية والإرسالية (أو الإعلانية) في رواية متى. وفي معجزة تكثير الخبز، تداخلت البيئة الليتورجيّة (شَكَرَ وبارَكَ وأَعْطَى) مع البيئة الكنسيّة (دور التلاميذ في توزيع الخبز والسمك) والنبويّة الكتابيّة (الرجوع إلى المنّ في البريّة) والإعلانيّة (مكوث يسوع في وسط الوثنيين). وقصة فيلبس وخازن ملكة الحبش تجمع بين بيئة ليتورجية (العماد) وتعليمية (تفسير نبوءة أشعيا). وأمّا هذا التداخل، فأمر طبيعي لأن لأحداث حياة يسوع معاني غنيّة، يتناولها كلّ انجيلي من زاوية معيّنة مختلفة عن غيره بحسب قصده اللاهوتي، كما سبق لنا أن أظهرناه بالتدقيق.

فإن لم يكن هدف الانجيليّين كتابة تاريخ يعطي كلّ التفاصيل، إلّا أن كلّ ما أوردوه هو حقيقي ومتين وذو قاعدة تبيّن شخصية يسوع التاريخيّة في أقواله وأعماله. وهدفهم كان يقضي بالردّ على أسئلة المسيحيّين أو غير المسيحيّين أو المناهضين للكنيسة، في أيام كثُرت فيها الاضطهادات.

هذه هي البيئات الحياتية، وهذا هو تأثيرها في الروايات الشفهية للأناجيل. فبوسعنا الآن أن ننتقل إلى القطب الآخر من تاريخ تكوين الأناجيل، ألا وهو التدوين الخطّي.

المرحلة الكتابية للأناجيل

المقدّمة

كلّما مرّ الزمن وابتعدت الجماعات المسيحية عن زمن حياة يسوع الناصري الأرضيّة، شعر المسيحيّون بضرورة تدوين الروايات الشفهية التي كانت الجماعات تتداولها، وخوفاً من السكوت بعد موت الرسل الذين عايشوا يسوع الناصري. فالذين لم يروه ولم يسمعوه طالبوا الرسل بتدوين الأناجيل، وطالبوا مرقس خصوصاً بتدوين التعليم الشفهي الذي كان يعلّمه بطرس الرسول.

إلّا أن بطرس لم يقبل هذه الفكرة بطيبة خاطر، إذ كان يرى في ذلك خطراً. وقد تحقّقت مخاوفه عندما ظهرت من بعده أناجيل كثيرة أضافت قصصاً غير حقيقية لم يعشها يسوع، بل نُسبت إليه، كما أنها انتحلت اسم أحد الرسل. هكذا ظهر انجيل تحت اسم بطرس لم يكن في الواقع إلّا اسماً منتحلاً. فانتشرت الأناجيل المنحولة أو المزيّفة (Apocryphes) مضيفة العديد من التفاصيل التقوية لا علاقة لها بحياة يسوع الحقيقية، أمثال طفولة مريم، وأسرة يسوع، وحياة يوسف، وطفولة يسوع وشبابه في الناصرة، واسم المجوس ولصّ اليمين والطاعن بالحربة...

كما كثرت معجزات يسوع بمبالغة لا حدَّ لها، على مثال هذه القصّة الطريفة: حين كان يسوع طفلاً، سخر منه ساخرون فقتلهم، ثم أقام بعضهم لأنهم كانوا أصدقاءه. ومثال الأشجار التي كانت تجثو أمامه والطيور التي كانت تحط به،

ومثال لحظة خروج يسوع من القبر قائماً من بين الأموات[١٨].

غير أن بطرس قَبِلَ فكرة التدوين، رغم مخاطرها، فظهرت الأناجيل القانونية الأربعة[١٩]:

١) **انجيل مرقس**: ظهر حوالى سنة ٧٠، وهو عبارة عن تعليم بطرس في روما، ويُظهر فيه يسوع أنه المسيح ابن الله، من خلال أعماله ومعجزاته خاصّة.

٢) **إنجيل لوقا**: ظهر ما بين سنة ٨٠ و ٩٠ في أنطاكيا، وهو موجّه إلى الوثنيين، ويُظهر كيف يفتقد الله بحنانه شعبه في شخص يسوع.

٣) **إنجيل متى**: ظهر ما بين سنة ٨٠ و ٩٠ في سوريا — فلسطين، وهو موجّه إلى اليهود (لذلك تَكْثُر فيه الشواهد الكتابية). ويسوع يظهر فيه متمماً لا مبطلاً للكتب.

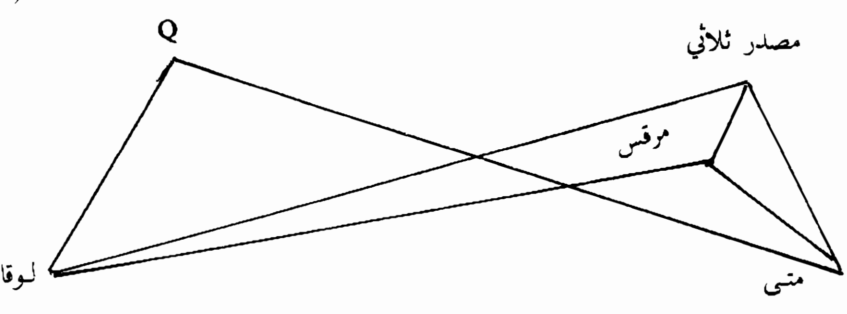
٤) **إنجيل يوحنا**: ظهر ما بين سنة ٩٥ و ١٠٠ في آسيا الصغرى، ويظهر فيه يسوع أنه كلمة الله، المصلوب الحيّ الذي يمنح روحه.

ومن بين هذه الأناجيل الأربعة، هناك ثلاثة منها متشابهة متوازية (**فسمّاها المفسِّرون** «المتوازيات») توضَع بعضها إزاء البعض للمقارنة فسمّوها «الإزائيّة»[٢٠]، وهي أناجيل مرقس ولوقا ومتى. ندرسها الآن كظاهرة متوازية أو إزائية.

مصادر الإزائيّة

تساءل المفسرون ما هو أصل الإزائية، هل هناك انجيل يكون بمثابة الأصل، أم هناك عدّة أناجيل لم تصلنا وإنما أثرت في تكوين الإزائيّة؟ وللقضية افتراضات عديدة تبحّر فيها المفسّرون واختلفوا في ما بينهم. ونورد هنا ثلاث نظريات أو افتراضات نالت نوعاً من الإجماع ولو جزئيًّا:

١. **نظرية المصدرَين**: (Théorie des 2 Sources)



١٨. هناك صور تقوية عديدة تمثّل هذه القصص الطريفة غير الحقيقية. وأما هذه الصور فإنها تضرّ بالفعل أكثر مما تفيد التقوى الناضجة.

١٩. سنتحدّث عن صحّتها وقانونيّتها في الباب المقبل.

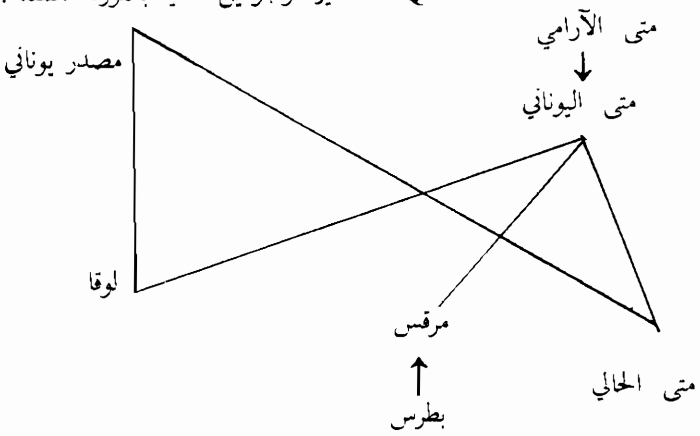
٢٠. بالفرنسية (Synoptiques) وهي كلمة يونانية مكونة من «نظرة» (optique) «موحّدة» (مع = syn)، أي في «نظرة» واحدة يمكن مقارنتها.

هناك مصدران بحسب هذه النظريّة :

أ) مصدر ثلاثي أثّر في مرقس ومتى ولوقا ، أو أثّر في مرقس وانطلاقاً من مرقس في متى ولوقا . والمعروف أن مرقس هو مبتكر الفن الأدبيّ «إنجيل» وليس في إنجيل مرقس نصوص تميّزه عن متى ولوقا ، فضلاً عن أنه مختصر بالنسبة إليهما . لذلك قد يكون انجيل مرقس هو الذي أثّر في الإنجيلين الآخرين .

ب) مصدر Q : إنّ حرف Q بداية كلمة Quelle الألمانية التي تعني «منبع» أو «مصدر» . وإنّ هذا المصدر عبارة عن مجموعة أقوال (Logia) باللغة اليونانية) تفوّه بها يسوع . ويكون هذا المصدر المكتوب باللغة الآرامية أو اليونانية قد أثّر مباشرة في إنجيل متى ولوقا فقط .

وهذان المصدران — المصدر الثلاثي والمصدر Q — غير موجودين حاليًّا بصورة مستقلّة .



٢. نظرية متى الآرامي : فاغاني(Vaganey)

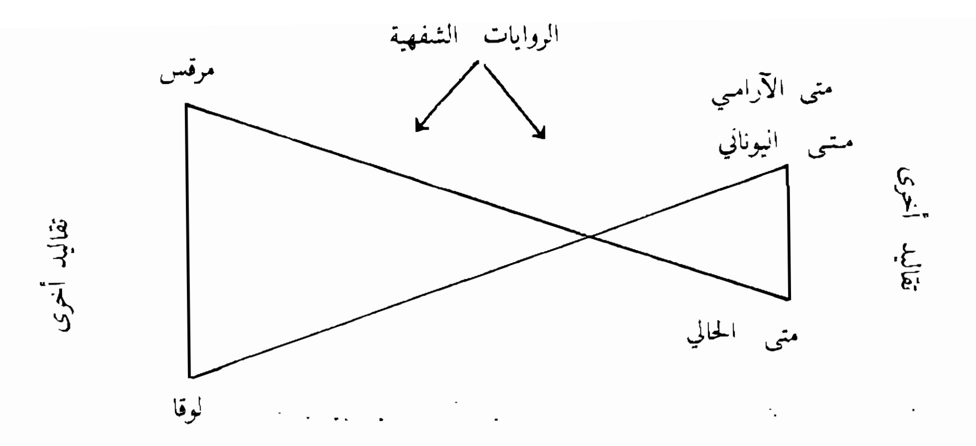
بحسب هذه النظريّة التي افترضها المفسّر فاغاني Vaganey ، إنّ هناك انجيلاً معروفاً (لكنه غير موجود حاليًّا) بانجيل متى ، مكتوباً باللغة الآراميّة ، وقد تُرجم إلى اللغة اليونانية . وإنجيل متى اليوناني هذا قد أثّر في متى الحالي ومرقس (الذي تأثّر من جهة أخرى ببطرس الرسول) ولوقا . غير أنّ متى الحالي ولوقا قد تأثّرا بمصدر يوناني أيضاً .

تؤيّد نظرية Vaganey بعض النصوص مثل متى ١٧ / ١٤ ومر ٩ / ١٤ ولو ٩ / ٣٧ . فضلاً عن أنّ متى الحالي ولوقا أكثر موازاةً في ما بينهما منهما مع مرقس (بسبب المصدر اليوناني) .

أما ما يعجّز هذه النظريّة ، فعدم وجود العظة على الجبل عند مرقس ، في حين أن متى الآرامي ومتى اليوناني يكونان قد أورداها .

٣. نظريّة المصدرَين المصحّحة

Théorie des 2 Sources corrigée par Levie



بحسب هذه النظرية، هناك مصدران:

أ) متى الآرامي ومنه متى اليوناني (بحسب نظرية Vaganey) اللذان أثّرا في متى الحالي ولوقا، لا في مرقس (راجع تعجيز النظرية الثانية).

ب) مرقس الذي أثّر **في متى** الحالي ولوقا (بحسب النظرية الأولى).

ويضاف إلى ذلك، التوضيحات الآتية:

● ان متى الآرامي ومتى اليوناني انجيلان، لا مجموعة كلمات فقط

● متى الحالي إعادة تأليف لمتى الآرامي ومتى اليوناني. ولكن دون فرق أساسي بينه وبينهما.

● إنّ ما يثبت وجود متى اليوناني (وبالتالي متى الآرامي) هو المتوازيات التي تجمع متى الحالي ولوقا والتي لم ترد عند مرقس.

● متى الحالي: لغته اليونانيّة سليمة ويظهر أنه لا يتقن اللغة العبرية تماماً. فضلاً عن أن هناك بعض الأخطاء في شواهد العهد القديم، علاوة على بعض التكرارات. لذلك هناك احتمال أن يكون مؤلف متى الحالي مختلفاً عن متى الآرامي ومتى اليونانيّ.

● للروايات الشفهيّة أهميّة بالغة في تكوين الأناجيل. وقد درسناها في الجزء الأول من هذا الباب عندما تحدّثنا عن البيئات الحياتيّة.

● ولقد أثّرت في الأناجيل بعض التقاليد الأخرى. فعلى سبيل المثال قد تأثّر مرقس ببطرس الرسول.

٤. الخلاصة:

من الصعب البتّ في موضوع مصادر الأناجيل الإزائية بصفة قاطعة وأكيدة. ولكن النظرية الثالثة (Levie) تنال اليوم نوعاً من الإجماع (وهي تدمج مكتسبات الأولى والثانية وتتحاشى عيوبها). إلى أن تظهر نظريّة أخرى تفرض نفسها أكثر ممّا هي الحالة في أيامنا.

الوحدات في الأناجيل الإزائية

(١) **القضيّة**: هناك قضيّة أهمّ من قضية «المصادر»، ألا وهي قضيّة «الوحدات» في الأناجيل. ففي الأناجيل الإزائية «وحدات أدبيّة» (Unités littéraires)، ربّما ورثها الانجيليّون من الروايات الشفهية:

● فعلى سبيل المثال، هناك وحدة مشتركة بين مر ٨/ ١+ ومتى ١٥/ ٣٢+ ولو ٩/ ١٠+: معجزة الخبز والسمك — (الفريسيّون يطلبون آية: متى — مر) — خمير الفريسيّين والصدوقيّين. (شفاء: مر) — شهادة بطرس — نبوءة يسوع الأولى بموته وقيامته — ما يُطلب من أتباع يسوع — التجلّي — طرد شيطان — النبوءة الثانية — (الأكبر في الملكوت — اسم يسوع: مر ولو) — (جزية الهيكل: متى).

فهذه الوحدة لا يفرضها المنطق أو الضرورة، لكن من الواضح أن الانجيليّين الثلاثة تسلّموها هكذا (مع بعض الفروقات الطفيفة).

● وكذلك هناك وحدات مشتركة بين المتوازيات، لكنّها وُضعت في إطار مختلف في كل انجيل: مثل الملح في مر ٩/ ٥٠+ ومتى ٥/ ١٣+ ولو ١٤/ ٣٤+. وهناك كذلك تنظيم خاص بكل انجيلي في إطار مصطنع: العظة على الجبل (متى ٥—٧) — ١٠ معجزات مجمّعة (متى ٨—٩) — ما يسمّيه المفسّرون «القوسين» عند لوقا ٩/ ٥١ — ١٩/ ٤٥) (La grande incise)...

من هنا نشأت فكرة دراسة تكوين هذه الوحدات الأدبية. فنشأت مدرسة ألمانية تبحّرت في مثل هذه الدراسة فتناولت دراسة الوحدات الصغيرة (Form). ومن هنا دراسة تاريخ تكوين الفن الأدبي انجيل (Geschichte)، وسُمّيت (Formgeschichte) [٢١] (نوجزها بهذين الحرفين ف ج (FG)

(٢) **تصنيف الفنون الأدبية**: سعت مدرسة ف ج (F.G.) إلى تصنيف مختلف الفنون الأدبية التي نجدها في الأناجيل فميّزت بين:

أ) الحِكَم (sentences) والاستعارات (métaphores) والأمثال (paraboles) والتعاليم (préceptes) والتمثيل (allégorie) [٢٢].

ب) المعجزات.

جـ) قصص شعبية (légendes populaires) مثل ميلاد يسوع وطفولته.

د) أساطير (mythes) خاصّة بظهورات الله (théophanies) مثل العماد والتجلّي.

وقامت بدراسة الصلة بين هذه المصنّفات

٢١. وهناك مدرسة «تاريخ تحرير الأناجيل» (Redaktiongeschichte) تناولت دراسة دور الانجيلي في تنسيق الوحدات الأدبية، في حين أن المدرسة الأولى تناولت بالأحرى دراسة الوحدات نفسها.

٢٢. الحِكَم: «السبت للإنسان، لا الانسان للسبت» — التمثيل: «الكرّامون القتلة»، حيث الابن يمثّل يسوع، والكرامون اليهود.

والبيئات الحياتية، علماً بأن هذه قد أثّرت في تكوين بعض الوحدات وأحرزت في المصنّفات بعض التعديلات. فعلى سبيل المثال، أثّرت البيئة الحياتية التعليمية في الأمثال والروايات، وقد رأينا كيف استخدمها نصّ متى في معجزة تسكين العاصفة، كما أن البيئة الحياتية الاعلانية تركت أثرها في نصوص العماد والتجلّي.

وهذا التأثير المتبادل حمل مدرسة ف ج (F.G.) على الفصل بين «يسوع التاريخ» كما عاش في حياته الأرضية و«يسوع الايمان» الذي كانت تؤمن به الجماعات المسيحية الأولى التي ألّفت الروايات الشفهية. ويقول بولتمان، وهو من أهم رُوّاد هذه المدرسة، إنه لا يمكننا الوصول إلى «يسوع التاريخ»، أي يسوع الناصري، بل جلّ ما بوسعنا أن نصل إليه هو «يسوع الإيمان»، أي يسوع المسيح القائم الذي آمن به المسيحيّون الأوّلون.

(٣) نقد مدرسة ف ج (FG): مكّنت المدرسة من تمييز الوحدات الأدبية وتصنيف الفنون الأدبية المختلفة التي ظهرت في الأناجيل، ولكنّ عليها مأخذَين، أولها ستتعرّض له في الباب القادم عند حديثنا عن الفنّ الأدبي «الإنجيل»، وهو خاص بالدور الذي قامت به الجماعات المسيحية، فقد أهملت المدرسة دور الانجيليّين أنفسهم ودور الشهود العيان (رسل ١ / ٢١ +)، مركّزة على دور البيئات الحياتية كأنها اختلقت شخصية يسوع دون الرجوع إلى يسوع الناصري نفسه. وأما المأخذ الثاني فهو خاص بالتصنيف الذي عرضناه.

فسؤالنا هو هل وُجدت حقًّا فنون أدبية خالصة في البداية، أم تداخلت عدّة فنون في ما بينها؟ فهل الهدف من سرد معجزة مثلاً هو المعجزة نفسها أم حكمة موضوعة في إطار معجزة؟ هذا ما ندرسه الآن من خلال تحليلنا لبعض حِكَم يسوع: (sentences)

أ) معجزة اليد اليابسة (مر ٣ / ١ — ٦):
ليست الذروة (pointe)، في هذه المعجزة، المعجزة نفسها، فلا يورد مرقس تفاصيلها ولا إعجاب الحاضرين ولا سلطة يسوع (خلافاً لمعجزات أخرى، مثل «تسكين العاصفة»)، بل يوجّه الأنظار نحو حكمة لفظها يسوع، وتشكّل ذروة الرواية: «أيحلّ عمل الصالحات في السبت، أم عمل السّيئات؟ وتخليص نفس أم إهلاكها؟» (٤).

وهذه الحكمة موضوعة في إطار جدال (controverse) حادّ بين يسوع والفريسيّين الذين خرجوا وتآمروا عليه مع الهيروديسيّين ليهلكوه (٦) إثر هذه المعجزة وهذه الحكمة. وقد سبق تدبير الفريسيّين هذا أنّ يسوع نفسه «أجال طرفه فيهم مغضباً مغتمًّا لعمى قلوبهم» (٥). فلم يورد متى الآية ٥ هذه (١٢ / ٩ — ١٤). وأما لوقا فاكتفى بقوله إن يسوع «أجال طرفه فيهم جميعاً» (٦ / ١٠)، ممّا يعني أن ذروة الرواية المرقسيّة مختلفة عنها عند متى ولوقا، وهذه الذروة هي الجدال العنيف بين يسوع ورافضيه، لا المعجزة بحدّ ذاتها (وإن حدثت فعلاً). فالحكمة التي تفوّه بها يسوع (٤) حكمة قصيرة ونافذة (خلافاً

لخطب يسوع بحسبِ انجيل يوحنا مثلاً) . وكأن مرقس يسرد رواية المعجزة لكي يُبرز الحكمة.

ب) حديث عن الجزية لقيصر (متى ٢٢ / ١٥ — ٢٢) : ليست الذروة في هذا القول الإطار التاريخي والسؤال نفسه الموجّه إلى يسوع كحادث حدث ليسوع، بل في الحكمة التي قالها : «أدّوا لقيصر ما لقيصر، ولله ما لله» (٢٢). وإنّ هذه الحكمة وردت في إطار جدال آخر بين يسوع والفريسيّين الذين كانوا «تآمروا كيف يصطادونه بكلمة» (١٥). ومتى هو الوحيد الذي يضيف على مرقس (١٢ / ١٣ — ١٧) ولوقا (٢٠ / ٢٠ — ٢٦) هذه الآية : «تركوه ومضوا» (٢٢). مبيِّناً هكذا العداوة بينهم وبينه (في حين أن الدهشة موجودة في الروايات الثلاث).

هكذا دمج متى قولاً مأثوراً ليسوع في إطار جدال عدواني.

جـ) حدث بركة الأطفال (متى ١٩ / ١٣ — ١٥) : لا توجد في هذا الحدث تفاصيل تاريخيّة، إذ يقول متى عن يسوع، بعد أن بارك الأطفال، إنه «مضى في طريقه» (١٥)، وقد «جيء إليه بأطفال» (١٣) من قبل، دون تفاصيل أخرى. ويعود ذلك إلى أن ذروة الحدث هي حكمة يسوع عن الأطفال : «دعوا الأطفال. لا تمنعوهم أن يأتوا إليَّ، فإنَّ **لأمثال هؤلاء** ملكوت السماوات» (١٤). هذا وقد أضاف مرقس في روايته (١٠ / ١٥ — ١٦) حكمة أخرى : «من لم يقبل ملكوت الله كأنه طفل، لا يدخله» (١٥)، وهذه الحكمة الأخيرة وردت عند متى في مقطع آخر وإطار آخر. حين سأله التلاميذ من هو الأكبر في الملكوت (١٨ / ١ +).

د) حدث دعوة التلاميذ (متى ٤ / ١٩ ولو ٥ / ١٠) : يختلف متى ولوقا في إطار حكمة يسوع «اتبعاني. أجعلكما صيادَي بشر». ففي حين يضعها متى في إطار حدث أو واقعة ليسوع (كان سائراً على شاطئ بحر الجليل فرأى أخوين : ١٨ +). يضعها لوقا في إطار معجزة (الصيد الوافر ١ +) المفقود عند متى ومرقس.

هذا فيما يختص بالحِكَم الموضوعة في أطر مختلفة. فالحكمة ممزوجة بفنٍّ أدبي مختلف (حدث معجزة أو حديث) ولا توجد حكمة خالصة، بل هناك حكمة في إطار معيَّن. فيتدخّل الفنّ الأدبي **«حكمة» في الفن الأدبي» «معجزة» أو** «حديث»... ونلاحظ المزج نفسه في المعجزات. ولنشرح ذلك.

فالمعجزات عامةً تتمحور حول ثلاثة عناصر : المحيط — المعجزة — الأثر في الحاضرين. وإن وُجدت كلمة قالها يسوع، فلا تركيز عليها (وإلّا أصبحت «حكمة» في إطار معجزة. كما رأيناه سابقاً)، مثلاً في شفاء المرأة المنزوفة : «يا ابنتي، أبرأك إيمانك. فاذهبي بسلام، وتعافَي من علّتك» (مر ٥ / ٣٤ ولو ٧ / ٥٠). ولكن التركيز كلّه حول أثر المعجزة في الحاضرين (أكثر منه في كلمته) : في الشياطين («أنا أعرف من أنت : أنت قدّوس الله» : مر ١ / ٢٤) وفي الجموع («دهشوا جميعاً وأخذوا يتساءلون : ما هذا؟»... مر ١ / ٢٧).

وإذا درسنا معجزة شفاء المشلول الذي أنزله أصحابه من السقف (مر ٢ / ١ +) ، نجدها تمزج بين الشفاء نفسه (١ — ٤ ، ١٠ ب — ١٢) وبين حكمةٍ في محيط المعجزة («غُفرت لك خطاياك» : ٥).

وما قلناه في الحِكَم والمعجزات . يمكننا أن نقوله في الروايات عن يسوع نفسه . فمعجزة شفاء بنت الكنعانية (متى ١٥ / ٢١ — ٢٨) تهدف إلى إظهار تصرّف يسوع في معاملة الوثنيين ، أكثر منها إلى إظهار سلطته . لذلك وجب البحث عن مغزى الرواية — من معجزة أو حديث أو حدث — لفهمها فهماً صحيحاً . وبهذا المعنى ، يبدو البحث عن «الفن الأدبي» أمراً هاماً لفهم الانجيل على وجه عام.

ونقول القول نفسه بالنسبة إلى بعض أحداث حياة يسوع ، كالعماد والتجلّي (وكلاهما من الفنّ الأدبي «ظهور الله» (Théophanique) المعروف في العهد القديم والذي استخدمه لوقا في سرد حدث العنصرة) ، وشهادة بطرس بألوهية يسوع ، والدّخول إلى أورشليم ، والنزاع في بستان الزيتون ، والآلام... فهناك قصد لاهوتي واضح من خلال سرد الحدث نفسه.

وهناك أخيراً فنّ أدبي يجب تمييزه عن سواه ، وهو «الملخّصات» التي تلخّص إمّا أقوال يسوع ، وإمّا أعماله . فعلى سبيل المثال ، يصف مرقس يوماً نموذجيًّا من أيام رسالة يسوع (١ / ٣٢ — ٣٤ و٣٥ — ٣٩) فيه الصلاة والتعليم والمعجزات . وكذلك في حديثه عن ظهورات يسوع ، فإنّه يجمعها ويلخّصها (١٦ / ٩ — ١٥) . وهذا الفنّ معروف عند لوقا أيضاً (رسل ٢ — ٥ مثلاً) . فلا يُراد من المقطع المدروس عرض تحقيقٍ صحفي دقيق عمّا فعله يسوع وقاله هنا أو هناك ، بقدر ما يبغي إعطاء صورة مقتضبة ونموذجية عنه.

(٤) **الخلاصة** : ختاماً لتحليلنا «للوحدات» ، يمكننا أن نقول بأن المدرسة .F.G ساعدت على إيضاح تكوين (ولا «خلق» مثلما تدّعي هي) وتطوّر (ولا «تحريف» مثلما يدّعي البعض) الوحدات في الجماعات المسيحية بإلهام الروح القدس ، في ضوء القيامة ، تحت سلطة الرسل ، في بيئات حياتية مختلفة (لا يُقبل الفصل في ما بينها) ، بحسب الأهداف اللاهوتيّة المختلفة من إنجيلي إلى آخر (وقد كمّلت مدرسة «تاريخ تحرير الأناجيل» Redaktiongeschichte ما أتت به مدرسة F.G. من حيث القصد اللاهوتي).

هذا هو تاريخ تكوين الأناجيل شفهياً ثم خطيًّا . فبعد هذه الجولة ، باستطاعتنا أن نخوض في معرفة الفن الأدبي الخاص بالأناجيل . وبعد نظرة تفسيريّة (الباب الأول) ، ثم نظرة تاريخية (الباب الثاني) ، بمقدورنا أن نستعلم عن النظرة الأدبية الخاصة بالأناجيل ، وهذا هو موضوع الباب المقبل.

الباب الثالث

الفنّ الأدبي «إنجيل»

تتميّز الأناجيل الأربعة بأنها تكوّن فنًّا أدبيًّا خاصاً بها، فريداً من نوعه، تتأثر به دون سواها من الفنون الأدبية، له صفاته ومميّزاته الخاصة. فعلينا أن نحدِّد، في خطوةٍ أولى، ما ليست الأناجيل وما هي الأناجيل كفنّ أدبي، الأمر الذي سيقودنا، في خطوة ثانية، إلى دراسة الصلة بين الأناجيل التي كُتبت بعد قيامة المسيح وتاريخ يسوع في حياته الأرضية، الصلة بين «يسوع التاريخ» — أي يسوع الناصري — و«مسيح الايمان» — أي يسوع المسيح القائم من الموت.

تعريف الفن الأدبي «إنجيل»

ما ليست الأناجيل

رأينا مراراً أن الأناجيل ليست تحقيقاً صحفيًّا قد يكتبه صحفي، عمّا شاهد ورأى، كتابةً أمينة للتفاصيل، ذلك بأنّ للأناجيل هدفاً أو قصداً لاهوتيًّا واضحاً.

وكذلك ليست الأناجيل كتاب تاريخ أو سيرة (biographie) كما نعرفها في تاريخ البشرية، سواء أكان التاريخ السياسي أو الديني أو غيرهما لبطل أو رجل عظيم، ذلك بأن كاتب كل إنجيل يكتب بدافع إيمانه بشخص يسوع المسيح وبغية توصيل هذا الإيمان إلى قارئيه أو مستمعيه.

وكذلك ليست الأناجيل كتاب عقائد يتّصف بالتنسيق والتنظيم، مستهدفة الإقناع بصحة مضمونها. فمنذ أواخر القرن الأول المسيحي، ظهرت كتب دينية للغنوصية (Gnose : المبنية على «المعرفة»، من اليونانية Gnosis) . ومن ضمن هذه الكتب ما أصدره مرقيون (Marcion) ، وقد حذف من الأناجيل الأربعة ما يتعارض وعقيدته، موجِّهاً كلامه إلى الخاصّة، مبهراً العامة. وأما الأناجيل الأربعة، فهي لا تخلو من الاختلافات (غير الجوهرية) خلافاً لتناسق الكتب العقائدية، وتتّسم بالبساطة الكلّيّة، خلافاً لبعض الكتب العقائدية.

فهل يمكن تشبيه الأناجيل بالصورة الفوتوغرافيّة؟ لا، ذلك بأنها تستدعي التكرار. فالإنجيليّون لم ينقلوا ما قاله يسوع وفعله وما حدث له نقلاً حرفيًّا أعمى. ونحن نعلم بأن الأناجيل كُتبت في ضوء القيامة.

ما هي الأناجيل؟

فما هي الأناجيل؟ ما هو هذا الفنّ الأدبي الخاص المعروف بـ «انجيل»؟[٢٣]. يجب بادئ ذي بدء التوضيح أنه، وإن لم يكن هدف الأناجيل كتابة كتاب تاريخ، إلّا أن مرجعها هو التاريخ، هو حدث تاريخي، أي حدث يسوع الناصري، الذي عايشه الرسل ودوّنه أربعة منهم ومن تلاميذهم. وفي هذه النقطة تختلف الأناجيل الأربعة عن الأناجيل المنحولة اختلافاً جوهرياً، إذ انّ هذه لم يكن مرجعها ما حدث فعلاً ليسوع، بل — كما أشرنا إليه — ما أفرزه التصوّر والمخيّلة من تضخيم وتجميل للأحداث، فضلاً عن أن الأناجيل الأربعة تختلف أيضاً عن كتاب عقائد يكون مرجعه منهج فكري أو فلسفي أو ديني معيّن، لا التاريخ بكل معنى الكلمة.

فالتاريخ هو مرجع الأناجيل الأربعة، بمعنى أن لُبَّ ما هو فيها قد حدث فعلاً، وهو أن يسوع الناصري ادّعى حقًّا أنه ابن الله والمسيح والمخلّص، حتى إنه مات مصلوباً بسبب ادّعائه هذا. ففي ذلك صدقت الأناجيل كلَّ الصدق والأمانة. فلا يفكّرنّ أحد بأنّ هناك اختلافات بين الأناجيل الأربعة: فهي لا تمسّ الجوهر اطلاقاً، كما أنها تعود إلى القصد اللاهوتي الخاصّ بكل إنجيلي.

ونرى هنا أولى ملامح الفن الأدبي «إنجيل». فهذا الفن، الفريد من نوعه في كل آداب العالم، يمزج بين حادث ومعناه اللاهوتي، فلا هو يروي حدثاً تاريخيًّا خالصاً، ولا هو يبتكر مذهباً لاهوتيًّا معيّناً، بل هو مزيج من حدث جرى فعلاً ليسوع قبل موته وقيامته، حرّره الإنجيلي في ضوء الموت والقيامة. والفن الأدبي «إنجيل» يتمحور حول وحدة شخصيّة يسوع، وهذه هي السمة الثانية له. فمن مميّزات هذا الفنّ الأدبي البارزة أنه لا يدور حول أوصاف خارجة عن الشخصيّة الأساسية. فعلى سبيل المقارنة، تتّسم قصص الأبطال في تاريخ البشرية بتفاصيل تخرج عن إطار البطل نفسه (مثلاً عندما تصف حروبه وانتصاراته وأعداءه...)، في حين أن الأناجيل الأربعة توحّد أنظارها حول شخصية يسوع. وإذا كانت لأقواله وأعماله وأحداثه أهميّة، فلكونها صادرة عن هذا المركز الوحيد، وهو شخص يسوع الذي كان يدّعي علاقة خاصة بالله. فالأناجيل مبنيّة على هذه الشخصيّة بصفة مطلقة.

وثمة سمة ثالثة للفن الأدبي «إنجيل»، وهي

٢٣. تعني الكلمة اليونانية Evangelion إعلان أحداث حياة الامبراطور، خاصة مولده وانتصاراته.

أنّه شهادة إيمانيّة. فهدف الإنجيليّين هو أوّلاً وأخيراً إشراك المستمع أو القارئ في الإيمان: «دُوِّنت تلك الآيات لتؤمنوا بأن يسوع هو المسيح ابن الله» (يو ٢٠ / ٣١ وراجع ١ يو ١ / ١ +). فالانجيلي يكتب بدافع من إيمانه بيسوع المسيح ابن الله، ويريد أن يشرك الآخرين بهذه البشرى (Evangelion). ويتطلّب هذا شيئاً من الشرح.

إنّ هدف الأناجيل — كما قلنا — هو إشراك الآخرين في الايمان بيسوع المسيح. ففي ذلك شيء من الإقناع والدفاع (Apologie)، لكن بطريقة تختلف تماماً عن طريقة الأناجيل المزيّفة، التي كانت تحذف كلَّ ما لا يتناسب وعقيدتها (الغنوصية). وأمّا الأناجيل الأربعة، فإنها لم تحذف مقاطع قد تثير سوء فهم، بل احتفظت بها.

فعلى سبيل المثال، احتفظت بالصورة التي تظهر أن الآب أعظم من يسوع، وأن يسوع يطيع الآب حتى الموت على الصليب، حيث يتركه الآب. وتكلّمت أيضاً عن الآب الذي يعرف الأزمنة والأوقات، لا يسوع. وأمّا المعجزات، فيقوم بها يسوع بقوة الآب. فيسوع يرفض الألقاب، المسيح والملك. واحتفظت أيضاً بالملامح البشرية لصورة يسوع: كالجوع والتعب والألم والانفعال... كما احتفظت بها لتي تعليمه من رفضٍ وتنبّؤه بالاضطهادات وهربه من الجموع...

فلو كانت الأناجيل الأربعة تريد الاقناع، على نمط الأناجيل المنحولة، لكانت ألغت كل التفاصيل البشرية من شخصية يسوع وجمّلت صورته وضخّمت وبالغت فيها تحبيباً له وإبرازاً لألوهيّته. ولكن كل ما نجده هو أن صورة يسوع بسيطة للغاية. صحيح أن الأناجيل كُتبت بعد القيامة، أي في ضوئها، في ضوء السيادة والانتصار والقوة، إلّا أنها لا تخلو من البساطة والطبيعة.

ولكن ما ظهر جليًّا من القيامة هو أن الانجيليّين كتبوا بدافع إيمانهم بأنه قام من بين الأموات. بهذا المعنى شهادة الأناجيل إيمانية بكل معنى الكلمة[٢٤]، أي أنّ الكتاب نفسه أهمّ من الكاتب، إذ تتلاشى شخصية الكاتب (رغم بروز قصده اللاهوتي، كما رأينا، ورغم أسلوبه الخاص) لصالح البشرى المدوّنة نفسها، ولفائدة الكنيسة التي تتقبّل هذه البشرى الصالحة، أي المؤمنين الذين يقرأونها أو يسمعونها، وذلك على نقيض ما يظهر في الأناجيل المزيّفة، حيث إنّ شخصيّة المؤلِّف تطغى على كتابه. وممّا يُثبت عدم طغيان شخصية الإنجيلي على انجيله أنّه، رغم توقير

٢٤. يقترح الأب غرنميزون (de Grandmaison s.j.) أن الأناجيل عبارة عن سر «ظهور الله» (Epiphanie - Théophanie de Dieu)، وان المقاطع الانجيلية كالعماد والتجلي والظهورات بعد القيامة تؤكد ذلك. إلّا أننا نفضّل تعبيراً «شهادة ايمانية» (Témoignage de Foi) الذي يقترحه الأب ليون كزافييه دوفور اليسوعي (Xavier Léon-Dufour s.j.)

الرسل في الكنيسة الناشئة (رسل ٥ / ١٥ وغل ٢ / ٩)، تتّسم صورتهم في الأناجيل، في مواقف عديدة، بالجبن والطمع وقلّة الإيمان وعدم الفهم والروح الوطنية المتعصّبة... فضلاً عن أن بولس كان يعارض ذلك التوقير. وليست هذه الصورة في صالحهم: فلو أرادت الأناجيل تجميلها، لَما أظهروها على حقيقتها.

وهناك تشبيه قد يساعدنا على فهم ما نريد تبيانه، هو تشبيه الصورة الفوتوغرافية. فإن النظر فيها، من مشاهدٍ غريب، لا يوحي له بأي معنى، ولا يجعله يتفاعل معها، إن لم يتبع شرح من أولئك الذين اشتركوا في تصويرها أو من الظاهرين عليها. وبهذا المعنى، تكون شهادتهم أعظم من الصورة نفسها. فالرسل قد اكتشفوا يسوع وأدركوا سرّه وهويته وأيقنوا ما غيّره في حياتهم، ولذلك هم يشهدون بذلك لنا. والأقرب من الأناجيل هو مثل الرسم الذي يقوم به الفنّان: فالرسم يتطلّب من الرسّام أمانة للمشهد الذي ينقله ويستدعي في الوقت نفسه ابداعاً وقصداً معيّناً. وهناك أيضاً مثل الفسيفساء، حيث إنها تكوّن مشهداً واحداً من جزئيّات متراصّة، فلا تُظهر الشكل الشامل إلّا من خلال تجميع الأجزاء المختلفة. وأمّا الأناجيل، فتتكوّن من أربعة أجزاء متكاملة تضفي على شخص يسوع المسيح شكله. غير أن أقرب تشبيه للأناجيل هو الرسم على ورق شفاف، فكأن هناك أربع ورقات شفّافة، على كل واحدة منها جزء من شكل معيّن، فلا يكتمل الشكل ولا يظهر بكامله إلّا بتراكب الورقات الأربع.

وكل ذلك يطمئننا بأن لا تحريف في الأناجيل. فلو أراد الإنجيليّون التحريف، لكانوا حذفوا المتناقضات والاختلافات، ولكانوا نسّقوا الأناجيل وسائر أسفار العهد الجديد، بل لكانوا وحّدوها، ولكانوا فخّموا صورة يسوع في حياته الأرضية وبالغوا فيها، ولكانوا جمّلوا صورة الرسل... ولكن الطابع العفوي البسيط والطبيعي هو سمة الأناجيل الأربعة.

الخلاصة

وخلاصة كلامنا عن تعريف الفنّ الأدبي «إنجيل» أنّ الانجيل يتمحور حول شخص يسوع المسيح. وهذه الوحدة أقوى من الاختلافات العديدة التي لم تخشها الكنيسة، لأنها لا تمسّ بالجوهر، بل تدلّ على التعدّدية: تعدّدية الانجيليّين، ومن قبلهم المصادر والروايات الشفهية والبيئات الحياتية حيث نشأت، تعدّدية القصد اللاهوتي من إنجيلي إلى آخر، من بيئة حياتية إلى أخرى، من مصدر إلى آخر... فالتأمّل في سرّ شخص يسوع المسيح تأمّل متعدّد الزوايا. وبما أنّ يسوع المسيح هو سرّ، وبما أن السؤال كبير («من أنا...؟» من هو هذا؟...)، فلا يستطيع كتاب واحد أو مؤلِّف واحد أن يستوعبه، بل ثمة ضرورة إلى تعدد الزوايا، تتكامل فيما بينها وتتجانس لكي تعطي صورة عن هذه الشخصية. ولـمّا شعرت الكنيسة بوحدة الأناجيل الأربعة وتكاملها، ولـمّا فطنت إلى أن هذه الوحدة قويّة، لم تَخَفْ من الاختلافات بين مؤلِّف ومؤلِّف، وأسلوب وآخر

وقصد وآخر... وبهذا المعنى ليست المسيحية «دين كتاب»، وليس المسيحيّون «أهل الكتاب». لأنّ محور المسيحية شخص لا كتاب، وإيمان المسيحيّين هو إيمان بشخص لا بكتاب. فتعدّد الأناجيل والكتب المقدسة يمنع من الوقوع في عبادة كتاب. فهناك إذاً شخص واحد، وهناك إنجيل (أي بشرى) واحد، وهناك تعليم واحد. وهناك حدث واحد هو موت وقيامة يسوع المسيح.

+ الانجيل يروي أقوال يسوع المسيح وأعماله وأحداثه مرتبطة بالقصد اللاهوتي، وهذا يعني أن حقيقة قراءة الانجيل لا تكمن في استيعاب الحادث الذي جرى — من قول أو فعل أو حدث — بل في ربطه بالقصد اللاهوتي الذي يُبرزه الإنجيلي بحسب البيئة التي استقى منها مصدره والجمهور الذي يتوجّه إليه. فالقراءة الصحيحة للأناجيل ينيرها حدث موت / قيامة المسيح. فالانجيلي كتب إنجيله في ضوء هذا الحدث، ومعنى الأحداث يكمن في حدث الموت / القيامة.

+ الانجيل عبارة عن شهادة ايمانيّة، بمعنى أنّ الدافع الذي يدفع الانجيلي إلى كتابته هو إيمانه بشخص يسوع المسيح، ابن الله، الحيّ بعد موته، كما أن هدفه هو إشراك الآخرين في إيمانه. وبعبارة أخرى، إنّ الانجيلي يشهد بإيمانه ويعلن إيمانه كي يؤمن الآخرون. وأمّا مضمون هذه الشهادة فإنّه يجمع بين يسوع الناصري (البعد التاريخي لحياة يسوع الأرضية) ويسوع القائم (البعد الإيماني ليسوع المسيح)، بين الحدث يسوع ومعناه الحقيقي. من خلال هذا التعريف، أن الفن الأدبي «إنجيل» فريد من نوعه في الآداب العالمية، لا يشاركه أيُّ فنّ آخر في هذه السمات الخاصة.

وبعد هذه الجولة، نستطيع تحديد الصلة التي أشرنا إليها مراراً بين يسوع الناصري ويسوع القائم، أو، كما يقول المفسّرون، بين «يسوع التاريخ» و «مسيح الإيمان» (le Jésus de l'Histoire et le Christ de la Foi)

الصلة بين «يسوع التاريخ» و «مسيح الايمان»

إذا اتضح لنا من دراستنا خصائص الفن الأدبي «انجيل» أن البشرى هي قراءة لحياة يسوع الناصري في ضوء موته / قيامته، فثمّة سؤالان يتبادران إلى ذهن المفسّر: ألم تقم الجماعة المسيحيّة الأولى في رواياتها الشفهية، والإنجيليّون في تدوينهم الكتابي، بعملية تجميل ومبالغة، بل بتغيير وتحريف لحقيقة يسوع؟ ثم هل من الممكن العودة إلى يسوع الناصري في أيّام حياته الأرضية، علماً بأن «التفسير الفصحي» أو «القراءة الفصحية» قد طغت على حياة يسوع الأرضية؟

عرض القضية تاريخيًّا

لقضية «يسوع التاريخ» / «مسيح الايمان» جذور تاريخية، يهمّنا فهمها ووضعها في إطارها الصحيح في بحثنا هذا. ونميّز بين ثلاث مراحل: الأولى هي مرحلة النقد التاريخي المتطرّف، وأما

الثانية فهي مرحلة النقد الإيماني المتطرِّف، وأما الثالثة فهي مرحلة اكتشاف سرّ يسوع المسيح وهي التي نتبنّاها. ولنحلّل كلاً منها.

١) النقد التاريخي المتطرِّف: (Criticisme historique) : ظهر في القرن التاسع عشر تيّار في علم التاريخ (المدني)، من أسس انتقاد المصادر التاريخية، بغية الوصول إلى الحقيقة الموضوعية (Vérité objective). وكان هذا التيار متأثراً بالعلوم الطبيعية (كالرياضيّات والطبيعة والأحياء والكيمياء...)، ويستهدف الوصول إلى اليقين والتأكيد والموضوعيّة التي تمنعها العلوم الطبيعيّة.

وتطبيقاً لهذا المفهوم على صعيد علم تفسير الكتاب المقدس، حاول المفسّرون الليبراليّون (Libéraux)، أمثال هَرناك ولوازي (Harnack أو Loisy)، أن يقتلعوا من الأناجيل كل ما يبدو أنه أسطوري (Mythique)، أي كل ما هو خرقٌ للقوانين الطبيعيّة، كأناجيل الطفولة والعماد والتجلّي... للوصول إلى مُعطيات موضوعيّة طبيعيّة يمكن اعتمادها كأسس علمية لمعرفة حقيقة حياة يسوع الناصري. فكأنهم أرادوا التوصّل إلى صورة فوتوغرافيّة عن يسوع، أو إلى سيرة (biographie) أمينة لحياته الأرضية. وبناءً على ذلك، ظهرت مؤلّفات عديدة تحمل عنوان «حياة يسوع» أو «سيرة يسوع»، محاولة التمييز بين ما هو ثابت موضوعيًّا وما هو مرفوض بسبب عدم الموضوعيّة.

غير أن النتيجة أسفرت عن تخيّلات — لا سيما النفسيّة منها — لسدّ عجز معطيات الأناجيل. وهكذا فشلت هذه المحاولة التي كانت تتوخى الموضوعيّة، لأنّها وقعت في تطرّف النقد التاريخي.

٢) النقد الايماني المتطرّف (Fidéisme) : واجه التيّار السابق معارضة عنيفة رفع رايتها (مرتان كَهْلِر (Martin Kahler) سنة ١٨٩٢ ومن بعده (رودولف بولتمان (Rudolf Bultmann المفسِّر الشهير. فبالنسبة إليهما وإلى المدرسة التي أسّسها المفسِّر الأخير، يرتكز الإيمان على يسوع المسيح القائم من الموت، لا على يسوع الناصري، كما أنّه لا يمكن الوصول إلى معرفة حياة يسوع الأرضية، لأن الأناجيل كُتِبَت في ضوء القيامة، واستهدفت إظهار الإيمان بفضل «الإعلان» (Kérygme)، وبالتالي يعجز المفسّرون عن الوصول إلى موضوعيّة حياة يسوع الأرضية.

وتدريجيًّا حدّد هذا التيّار مفاهيمه التفسيريّة، فلم يبغِ معرفة «من هو يسوع» لأنها مستحيلة. بل كان المهم معرفة المسيح الذي أعلنته الجماعة المسيحية الأولى، وكأن هذه الجماعة قد ابتدعت صورة يسوع الناصري (في الروايات الشفهية والبيئات الحياتيّة)، وكذلك شخصيّته. فليس المهم التساؤل: «من هو يسوع»، بل «ما حدث ليسوع» بقدر ما يخصّني «ما حدث له»، ومن هنا تأتي الصبغة الذاتية.

ويستند هذا التيّار إلى اختبار بولس الذي لم يعرف يسوع بحسب الجسد، بل عرف المسيح القائم، مسيح الايمان، وإلا لكان بقي في حكم

الشريعة وحكم الجسد، عوضاً عن حصوله على الحريّة والروح.

إن لهذا التيّار — وقد تحقّق في مدرسة تاريخ تكوين الفن الأدبي إنجيل (Formgeschichte) كما رأينا — الفضل في أنه أظهر جليًّا دور الإيمان عوضاً عن النظرة التاريخيّة المتطرّفة، وأبرز كذلك دور الإعلان عن يسوع المسيح. إلّا أن نظرته الإيمانية هذه تّسم هي الأخرى بالتطرّف. فعلى نقيض اتّجاهها، يمكن التأكيد أنه من الممكن التعرّف إلى حياة يسوع الأرضية وإلى حياة الجماعة قبل الفصحية التي أسسها يسوع مع تلاميذه قبل قيامته. وهذا هو الاتجاه الثالث الذي نتبنّاه.

٣) سرّ يسوع المسيح: سعى التياران السابقان إلى إلزام الاختيار بين «يسوع التاريخ» (التيّار الأول) و«مسيح الايمان» (التيار الثاني). أفليس من الممكن الخروج من هذا المأزق ومن هذا الاختيار غير الصائب؟ أليس «يسوع التاريخ» هو في نهاية الأمر «مسيح الايمان»؟ أليس من الممكن أن نرتقي من «مسيح الإيمان» إلى «يسوع التاريخ»؟ أليس «يسوع التاريخ» و«مسيح الايمان» مرتبطين ارتباطاً وثيقاً لا يتحمّل الفصل أو الانفصال؟ (rupture-discontinuité)

أليس شخص يسوع المسيح هو «سرّ» (Mystère) يظهر في حياته الأرضية كما يظهر في قيامته؟

هذا هو اتجاهنا، وهذا ما نثبته ونحلّله الآن باستفاضة، انطلاقاً من إطار معيَّن هو «الجماعة قبل الفصحية» (Communauté pré-pascale)

الجماعة قبل الفصحية

لقد أكّد (بولتمان) (Bultmann)، في طريقه نحو إبراز «مسيح الإيمان»، أنه لا يمكن أن نحصل على معرفة موثوقة عن الجماعة التي كوّنها يسوع مع الاثني عشر وما كان يحدث له ويقوله ويعمله تماماً. فبالنسبة إليه، لم تنشأ المسيحيّة مع يسوع الناصري وتلاميذه، بل انطلاقاً من الايمان بالمسيح الفصحي. فالجماعة الفصحية — أي جماعة ما بعد القيامة، أي الكنيسة الناشئة — هي البيئة الوحيدة التي يمكن الوصول إليها والاعتماد عليها لأنها تشكّل مصدراً موثوقاً، فهي التي كتبت الأناجيل في ضوء القيامة.

ومقابل هذا التطرّف، نودّ أن نُثبت أنه ممكن تماماً الوصول إلى الجماعة قبل الفصحية وبالذات إلى «يسوع التاريخي» في أقواله وأعماله وأحداثه، وإن تلوّنت هذه كلّها بصبغة القيامة دون ريب. ونتتبّع، لإثبات ذلك، ثلاثة محاور متكاملة: النقد الخارجي — النقد الداخلي — النقد التاريخي.

النقد الخارجي: التقليد الخاص بيسوع

نقصد بالنقد الخارجي (Critique externe) النظر إلى الأناجيل، لا من منطلق نص الأناجيل نفسه، بل من خارجها، أي من منطلق الحضارة التي عاش فيها يسوع الناصري وراجت فيها الروايات الشفهيّة ونشأت فيها البيئات الحياتيّة ودُوّنت فيها الأناجيل.

بوجيز العبارة، تتّسم هذه الحضارة بأنّها حضارة شفهية (Civilisation orale) [٢٥].

وقد رأينا كيف تمّ تداول الروايات الشفهية قبل تدوينها في الأناجيل الأربعة.

فالكنيسة الناشئة عمدت إلى تجميع أقوال يسوع أمانةً له. وممّا ساعدها في هذا العمل هو الأسلوب الشفهي الذي اتّبعه يسوع نفسه. فقد كان يخاطب الجموع بأقوال أو حِكَم أو أمثالٍ قصيرة وواقعيّة لها أثرها البليغ في النفوس[٢٦]:

«من لطمك على خدّك الأيمن، فاعرض له الآخر»، «من أراد أن يحاكمك ليأخذ ثوبك، فاترك له رداءك أيضاً» (متى ٥ / ٣٩ — ٤٢).

وهو يضفي على هذه الأقوال طابع الترداد والتكرار: «**إسألوا** تُعطوا... فمن يسأل يُعطَ»، «اطلبوا تجدوا... فمن يطلب يَجِد»، «اقرعوا يُفتح لكم... فمن يقرع يُفتح له» (متى ٧ / ٧ — ٨).

لم يبتكر يسوع أسلوباً جديداً أو فناً أدبياً جديداً، بل كان يتمثّل بما كان معروفاً آنذاك لدى المعلّمين في فلسطين («الرابّي»)، الذين كانوا يخاطبون تلاميذهم والجموع بالأمثال، إذ كانت الحضارة شفهية ومبنيّة على هذا الأساس. وبالتالي نتساءل لماذا افترض بولتمان أن الكنيسة هي التي ألّفت هذه الأحاديث وهي بالفعل تُحف وبدائع من حيث الأداء، ولماذا رفض أن يكون شخصاً واحداً — هو يسوع الناصري — قد تفوّه بها، شأن كل المعلّمين في فلسطين حينذاك. لا شيء من حيث النقد الخارجي يبرّر افتراضه هذا.

وإذا تساءلنا عن اللغة اليونانية التي استخدمها الانجيليّون، علمنا أنها لغة شعبية عامة (ما عدا لوقا الذي كان يُتقن اللغة اليونانية)، وفيها تداخلت عبارات وصيغ آرامية أو عبرية. فعلى سبيل المثال، وانطلاقاً من النصّ اليوناني[٢٧] الوارد في متى ١١ / ١٧ والذي ترجمته بالعربية هي:

«زمّرنا لكم فلم ترقصوا، ندبنا لكم فلم تضربوا صدوركم». نستطيع استرجاع الأصل الآرامي، أي ما قد يكون قاله يسوع بلغته (ونورده بالأحرف اللاتينية، ولنلاحظ الشبه بلغتنا العربية):

zemarn lekhon wela raggedhton

welain lekhon wela ‘argedhton

٢٥. على سبيل المثال: هناك امرأة هندية أمّية تعرف صلاة هندوسيّة يقرب طولها من ٢٥٠ صفحة. ونحن نعلم أن للمسجونين ذاكرة قوية. والحضارة الساميّة وحضارتنا العربية (خاصة في القرى) تتسمان بالطابع الشفهي أكثر منه الكتابي.

٢٦. لم يُلقِ يسوع خطباً طويلة. فخطبة الوداع (يو ١٤ — ١٦) والعظة على الجبل (متى ٥ — ٧) قد نسّقها الانجيليان وجمعا أحاديث عديدة تفوّه بها يسوع في مناسبات مختلفة ومتفرّقة.

٢٧. صدر التقليد الانجيلي الأول باللغة اليونانية بحضور التلاميذ أنفسهم، بسبب وجود يهود يونانيين. والمعروف أن لغة الثقافة في ذاك الزمن كانت اللغة اليونانية.

وممَّا لا شكَّ فيه أن التلاميذ الرسل كانوا يوقّرون تقليد يسوع في تعليمهم وعبادتهم (رسل ٥ / ٤٢) وإعلانهم له. فليس من الغريب أن يكونوا قد جمعوا، في روايات شفهية، ثم في الأناجيل الأربعة، ما سمعوه منه وما رأوه يفعله.

ومن المعروف أيضاً، في الحضارة اليهوديّة الشفهيّة، أن بعض المعلّمين («الرابّي») كانوا يفسّرون الكتاب المقدّس تفسيراً شفهياً لتلامذتهم. وهكذا تكوّن تدريجيًّا «التلمود» (Talmud) و«المشنه» (Mishna) وهما عبارة عن مجموعة من التفاسير الشفهية للكتاب المقدس. وكان التلاميذ (بالعبرية «تلميذ»، ومنها «التلمود») يتعلّمون عن ظهر قلوبهم النص الكتابي من جهة، والتفسير الربّاني من جهة أخرى، وذلك تحت إشراف ورعاية «الرابّي» نفسه. وللمساعدة على الحفظ، كانوا يستعينون أحياناً بتدوين بعض النصوص كتابيًّا.

فمن المحتمل جداً أن يكون يسوع قد فعل ما هو شبيه بذلك مع تلاميذه. فكان، على سبيل المثال، يشرح لهم الأمثال التي كان يقولها للجموع، كما كان يهتم بهم اهتماماً خاصاً. ونلاحظ أيضاً في الكنيسة الناشئة أن للمعلّمين دوراً بالغاً (١ قور ١٢ / ٢٨ و٤ / ١٧ وغل ٦ / ٦ وروم ٦ / ١٧). إلّا أن التشبيه بالمعلّمين اليهود يتوقّف عند هذا الحدّ. فالفرق بينهم وبين المعلّم يسوع الناصري شاسع. فبينما كان مدار تعليمهم الكتاب المقدس، كان تعليمه هو شخصه لا التوراة، وفي ذلك يفترق عنهم كليًّا. وثمّة فرق ثانٍ بالغ الأهمية، وهو أن الروايات الشفهية قد تألّفت وتجمّعت، والتدوين الرباعي للانجيل قد تمّ بإلهام من الروح القدس، لا بفعل الذاكرة البشريّة فحسب. فلا شكّ أن الروح القدس قد استخدم قوّة الذاكرة الساميّة والحضارة الشفهية، إلّا أنه هو مُلهم التأليف والتجميع والتدوين، بحسب وعد يسوع نفسه لتلاميذه في أثناء وداعه لهم:

«الروح القدس... يعلّمكم جميع الأشياء ويذكّركم جميع ما قلته لكم» (يو ١٤ / ٢٦). «حتى إذا جاء روح الحقّ، أرشدكم إلى الحقّ كله، لأنه لا يتكلّم من عنده، بل يتكلّم بما يسمع وينبئكم بما يحدث.

سيمجّدني لأنه يأخذ ممَّا لي ويُطلعكم عليه» (يو ١٦ / ١٣ — ١٤). فأمَّا «التذكير»، فهو تذكير التاريخ، تذكير ما حدث ليسوع الناصري وما قاله وفعله. وأما «التعليم» و«الإرشاد» فيختصّان بمعنى الأحداث والأقوال والأعمال، بحسب تمييزنا أن القراءة الصحيحة للانجيل تشمل الحدث ومعناه معاً. هذا هو عمل الروح القدس، إنّه يذكّر التلاميذ بحياة يسوع ويساعدهم على فهمها واكتشاف معناها اللاهوتي الحقيقي. قد صمت يسوع، إلّا أن صوته لا يزال يُسمع بفضل الروح القدس، ولا يزال يُسمع في الأناجيل بفضل الروح القدس الذي يكلّم المؤمنين داخل الكنيسة، كما أنه لا يزال يُسمع بالإعلان عن يسوع المسيح القائم بفضل الروح القدس أيضاً. فكلمته لا تزال حيّة وليست ككلمة المعلّمين الآخرين الذين يفسّرون الكتب فحسب.

هذا ما يثبته لنا النقد الخارجي، أي ما تفرضه علينا الحضارة اليهودية وكانت حضارة شفهيّة. إلّا أن هذا النقد يستدعي النقد الداخلي وهذا ما نتطرّق إليه الآن.

النقد الداخلي: يسوع الناصري والاثنا عشر

نقصد بالنقد الداخلي (Critique interne) النظر إلى الأناجيل من منطلق نصّ الأناجيل نفسه، من داخل النصوص نفسها. وهنا يتبادر إلى ذهننا سؤال لا بدّ من طرحه: هل يمكن الوصول إلى يسوع الناصري، كما عاش في حياته الأرضية، انطلاقاً من التقليد الرسولي، أي من الجماعة المسيحيّة الأولى، من الكنيسة الناشئة؟ لقد ردّ مفسّران على هذا السؤال بالإيجاب.

وأمّا الرد الأول، فهو ردُّ المفسّر (دال (Dahl) البروتستانتي. وهو ينطلق من موت يسوع على الصليب بسبب ادّعائه المسياني (واللافتة على الصليب تؤكّد ذلك)، وهذا أمر ثابت تاريخيًّا بغضّ النظر عن القصد اللاهوتي الذي نبع من حدث القيامة نفسه. وعلاوةً على ذلك، فإنّ شخصية يسوع واضحة المعالم من خلال أقواله وأعماله، بل ومعاملته لمعاصريه من فرّيسيّين وعشّارين وخطأة وفقراء.. بحيث إنه لمن المستحيل أن تكون الكنيسة الناشئة قد ابتدعت هذه الشخصية، لأن في هذه الشخصيّة من الوحدة والتلاحم وعدم التناقض ما يجعل من المحال كلّ اختلاق لشخصية ما. وفضلاً عن ذلك، لم يظهر يسوع مدافعاً عن نظرية أو عقيدة كما يظهر بولس مثلاً، بل هو معلّم («رابّي») حقاً يلتفّ حوله تلاميذه. ثم إنّ الجو السائد في الأناجيل فلسطيني خالص، في حين أن الجماعات المسيحيّة الأولى لم تكن كلّها من اليهود، بل دمجت عناصر وثنية ولا سيما اليونانية فيها («الأمم»).

وأخيراً — وهذه النقطة هي إضافة استقيناها من المفسّر (مُوسْنِر (Mussner) — إن الأناجيل تصرّفت في بعض أقوال يسوع وأعماله حيث إنها أضْفَت عليها القصد اللاهوتي الذي كان يقصده كل انجيلي، كما أنها تصرّفت في ترتيبها وعرضها، وهذا ما لم تجرؤ أن تفعله الجماعات المسيحية الأولى في رواياتها الشفهية، لشدّة أمانتها لِحرفية ما قاله يسوع وعمله.

إن هذا الردّ لمقنع ويصرف عنّا التساؤل والشكّ والزعزعة التي أدخلها بولتمان إلى القلوب بنفيه إمكان الرجوع إلى يسوع الناصري، إلى «يسوع التاريخ». ولكن الحقّ يقال إن ردّ المفسّر دال ناقص ومحدود، وسيكمّله غيره من المفسّرين، خصوصاً المفسّر الكاثوليكي (شورمان (Schürmann)، فإن هذا المفسّر صوّب نظره نحو الجماعة التي أسّسها يسوع الناصري مع تلاميذه، أي «البيئة الحياتية» (Milieu de vie) أو «البيئة الاجتماعية» (Milieu sociologique) التي كوّنها يسوع، فيتساءل هل معرفتها أمرٌ ممكن أم أمر مستحيل، كما يدّعي بولتمان؟

إنّه يؤكد بالإيجاب إذ من الممكن البحث في هذا الصدد عن ثلاثة جوانب منها: روح الجماعة قبل الفصحية، ثم عملها الرسولي،

فشكلها وبنيتها. ونحلّل بالتالي هذه الجوانب الثلاثة:

١) **محور الجماعة قبل الفصحية**: إن مركز الجماعة قبل الفصحية هو دون ريب شخص يسوع نفسه، لا المسيح الذي قام من بين الأموات، كما يقول بولتمان. فالقيامة مرتبطة ارتباطاً وثيقاً بالتجسّد، بل وتفترضه، أي إنها تفترض دخول الله في تاريخ البشرية، كما تنبّأت به الكتب، وكما كان الشعب ينتظره، وكما حقّقه فعلاً يسوع الناصري بتجسّده. وهذه النقطة، نقطة البدء، يتجاهلها بولتمان، مركّزاً على حدث القيامة دون التجسّد وحياة يسوع الأرضية. هذا من جهة ارتباط القيامة بحدث ماضٍ. ولكن القيامة مرتبطة أيضاً بحدث مستقبلي، ألا وهو نشأة الكنيسة امتداداً ليسوع الناصري القائم وتكملة لرسالته، وذلك بواسطة الروح القدس.

وهكذا فإن إيمان الرسل، قبل أن يكون ايماناً بيسوع المسيح القائم، كان إيماناً بيسوع الناصري، وان اكتمل إيمانهم به بعد قيامته وحلول الروح القدس. ومن الممكن أن نرسم تطوّر إيمانهم في هذه الصيغة: إنّهم آمنوا بالمجيء الثاني أوّلاً[٢٨]، وبعده بالقيامة، ثمّ بالحياة الأرضيّة، فبالتجسّد[٢٩]، حتى إن يوحنا يُظهر المجد في كل تفاصيل حياة يسوع الأرضية.

ومن الركائز المتينة التي يمكن الاعتماد عليها في حياة يسوع الأرضيّة، أنه دعا أناساً بسلطان ليتبعوه هو شخصيًّا ويسمعوا كلامه (راجع مثلاً مر ٣ / ١٣ — ١٤)، لا ليتّخذوا موقفاً وقراراً بشأن المجيء الثاني مثلاً، كما ادّعى بولتمان. وانه أعلن الملكوت (متى ٤ / ١٧). وأمَّا تعليمه فكان بسلطان (متى ٧ / ٢٩ ومر ١ / ٢٧)، فأتى بالجديد في تعليمه وانتقد العديد من التقاليد (متى ٥ +) خلافاً لمعلّمي عصره. ويعود سلطانه هذا إلى أنه نبيّ (لو ٧ / ١٦ ومتى ٢١ / ٤٦)، بل أكثر من نبيّ (لو ١١ / ٣٢ و١٠ / ٢٣ — ٢٤). وأمَّا كلمته فكانت تجعل الملكوت حاضراً (متى ١١ / ١٢)، إذ كانت كلمة الله كلمته، فلم تكن كلمة الله التي كان يَنْقُلها الأنبياء، ولكنّها كانت كلمته هو، تلك الكلمة التي يمكن الاعتماد عليها يوم الدين (متى ٧ / ٢٤ — ٢٧)، وهي للإدانة (متى ٢١ / ٢٨ — ٣١ ولو ٧ / ٣١ — ٣٥ و١٠ / ١٣ — ١٥)، إذ انها باب السماء (متى ٧ / ١٣) والحياة (متى ١٩ / ١٦ — ٢٢).

فكل هذه الشواهد، إن دلّت على شيء، فعلى أن مرجعها هو شخص يسوع — لا مثل الأنبياء كالمعمدان وغيره — الذين لا يركّزون تعليمهم وكلامهم على أنفسهم، بل على الله الذي يرسلهم. كما أنها مركّزة على شخص يسوع قبل الفصحي، في أيّام حياته الأرضية.

وخلاصة قولنا أن هناك تواصلاً وثيقاً بين اتّباع

٢٨. وهذا واضح جليًّا في رسالتي بولس إلى أهل تسالونيكي، وهما أول ما كُتب من أسفار العهد الجديد، ما بين سنة ٥٠ و٥٥.

٢٩. التجسّد واضح عند يوحنا... والكلمة صار بشراً... ونذكّر بأن انجيله آخر كتاب من العهد الجديد، ظهر في نهاية القرن الأول (ما بين سنة ٩٠ و١٠٠).

يسوع الناصري الذي دعا تلاميذ له فتبعوه («من أنا على حدِّ قولكم أنتم؟» متى ١٦ / ١٥)، وعلّم الجموع، ويسوع القائم الذي آمنوا به وشهدوا له («دُوِّنت تلك الآيات لِتؤمنوا بأن يسوع هو المسيح ابن الله» يو ٢٠ / ٣١). وهو يوحنا الحبيب في رسالته الأولى وفيها يربط خير ربط بين يسوع التاريخ ومسيح الايمان:

«ذاك الذي كان منذ البدء (قبل التجسد)
ذاك الذي سمعناه
ذاك الذي رأيناه بعينينا
ذاك الذي تأملناه
ذاك الذي لمسته يدانا... (الحياة الأرضية)
نبشّركم به...» (المسيح الفصحي).

٢) **عمل الجماعة قبل الفصحية الرسولي**: إذا صوّبنا نظرنا الآن إلى الرسالة التي قامت بها جماعة التلاميذ قبل الفصحية واستشففنا ملامح الرسالة هذه، رأيناها تختلف عن الرسالة الفصحية، مما يدلّ على أنه من الممكن الوصول إلى الجماعة قبل الفصحية، لأن الجماعة الفصحية لم تُضِف على الرسالة قبل الفصحية ملامح الرسالة الفصحية، في حين انه كان من المتوقع أن تُسبغ على الرسالة قبل الفصحية سمات الرسالة الفصحية، والعكس هو الصحيح.

ففي حين أن يسوع المسيح القائم أوصى تلاميذه بأن يذهبوا إلى جميع الأمم ويبشّروا الخلق أجمعين (متى ٢٨ / ١٩ — ٢٠ ومر ١٦ / ١٥)، كان قد أوصاهم قبل قيامته بألّا يأخذوا طريق الوثنيّين وألّا يدخلوا مدينة سامرية (متى ١٠ / ٥). فهذا الفرق بين الرسالتين يؤكّد لنا صحة الرسالة الأولى، إذ كان من المتوقّع أن تتحدّث الجماعة الفصحية عن الرسالة قبل الفصحية بصفة الشمولية. ولكن، إنْ هي تحدثت عن الرسالة بمعزل عن الوثنيين والسامريين، فلأن هذا الطابع غير الشمولي خاصّ بما قبل الفصح. دُوّنت الأحداث الفصحية عندما اتّسعت الرسالة إلى أرجاء المسكونة كلّها. فتعود توصية يسوع قبل الفصح إلى يسوع الناصري نفسه، لا إلى الجماعة الفصحية، كما أن الرسالة قبل الفصحية قد وُجدت حقًّا.

وهناك عودة التلاميذ إلى يسوع بعد رسالتهم واهتمامه بهم (مر ٦ / ٦ — ١٣ ولو ٩ / ١ — ٦ و٣٥ — ١٠ / ٢٠ و٥ / ١٠ ومتى ٤ / ١٩ و١٠ / ٢٦ — ٢٧)، للدلالة على حقيقة وجود هذه الرسالة قبل الفصحية، وبهذه الطريقة يُعدّ يسوع تلاميذه لأن يقوموا بالرسالة الفصحيّة في غيابه وعوضاً عنه. فقبل الفصح تعلّموا منه مضمون الرسالة، كما كان التلاميذ في إسرائيل يتعلّمون من معلّميهم («الرابّي»).

ومضمون الرسالة الفصحية كان يتمحور حول فكرة الملكوت (متى ٥ / ١ + و١٣ / ٤٤ — ٤٦ و٢٤ / ٣٢ — ٣٣ ولو ٦ / ٢٠ — ٢١ و١٠ / ٢٣ — ٢٤ و١٢ / ٥٤ — ٥٦ و١٧ / ٣٤ — ٣٥)، لذلك كثرت في تعاليم يسوع الأمثال عن الملكوت ونموّه (متى ١٣ / ٣ — ٩ و٢٤ — ٣٢ ومر ٤ / ٢٦ — ٢٩). فملكوت السماوات حلّ هنا (متى ١٠ / ٧ و٤ / ١٧ ولو

١٠ / ٩ — ١١). والعلامة أنه قد أتى هي أن يسوع يقوم بالمعجزات والآيات (لو ١١ / ٢٠ ومتى ١٢ / ٢٩). وأمام حلول الملكوت، على الموعوظين أن يتوبوا وأن يسهروا ويستعدّوا (لو ١٢ / ٣٩ — ٤٠ ومر ١٣ / ٣٥ — ٣٦)، خوفاً من الدينونة (لو ٤ / ٢٥ — ٢٧ و١٣ / ١ — ٩ و١٣ / ٢٨ — ٢٩). وكذلك فالنظرة إلى المال مثلاً، والتعليم المختصّ بالمحبة والتسامح... يُفهَمان فقط في إطار قدوم الملكوت وضرورة التوبة.

وإذا قارنّا مضمون التعليم قبل الفصحي هذا بالتعليم الفصحي، لاحظنا أن هذا الأخير لا يعير للملكوت الأهمية نفسها التي يتولّاها التعليم قبل الفصحي. فالتعليم الفصحي يدور حول شخص يسوع المسيح القائم. وهذا الفرق بينهما دلالة أخرى على إمكانية الوصول إلى ما قبل الفصح بغضّ النظر عن النظرة الفصحية نفسها.

٣) **بنية الجماعة قبل الفصحية**: وإذا نظرنا إلى الجماعة قبل الفصحية، رأيناها ملتفّة حول يسوع، خلافاً للجماعة الفصحية التي كانت تحيا بالمسيح القائم الغائب بجسده / الحاضر بروحه. والفرق بينهما إشارة واضحة إلى أنه بإمكاننا الوصول إلى يسوع الناصري، يسوع التاريخ الذي كانت له متطلبات معيّنة، منها ترك كل شيء لأتّباعه (راجع يو ٦ / ٦٦ مثلاً)، ولا مكان لوضع الرأس (لو ٩ / ٥٨) إذا إنّ الحياة معه حياة متجوّلة، ومنها ترك الموتى يدفنون موتاهم وعدم النظر إلى الخلف (لو ٩ / ٥٧ — ٦٢)، ومنها ترك الأهل والأملاك (لو ١٤ / ٢٦ + ومتى ١٠ / ٣٤ +). ومن هنا وجوب التفكير قبل الالتزام وراءه (لو ١٤ / ٢٨ + و١١ / ٢٣ ومتى ١٦ / ٢٤ — ٢٥)... فكل هذه المتطلبات والجو الذي أتت فيه إلى عالم الوجود، مختلفة عنها في الجماعة الفصحيّة التي تحاول الاستقرار والاستمرار أكثر من التجوال. ثم إن نمط حياة الرسل بعد الفصح استوحيَ من نمط الرفقة مع يسوع. فمحاولة الحياة الاشتراكية في الجماعة الرسولية (رسل ٢ / ٤٤ — ٤٥ و٤ / ٣٢ — ٣٧ و٥ / ١١) مستوحاة من المعايشة الجذرية برفقة يسوع، وتعليمه وتربيته لهم...

٤) **الخلاصة**: يجدر بنا التأكيد على أن الأناجيل ليست ثمرة الجماعة المسيحية الفصحية فقط، بل قبل الفصحية أيضاً، فتلك مرتبطة بهذه، وهناك تواصل بينهما دون ريب. فالأناجيل الأربعة هي كتب تاريخ حياة يسوع الناصري حقًّا، وإن لم يكن هدفها كتابة كتاب تاريخ، كما أسلفنا. ويمكن الاعتماد عليها بكل ثقة ويقين لمعرفة حياة يسوع الناصري والجماعة قبل الفصحيّة بخصائصها المختلفة عن خصائص الجماعة الفصحيّة.

وكل ما توصّلنا إليه إلى الآن يعتمد على النقد الداخلي — أو الأدبي — (في هذه الفقرة) والنقد الخارجي (في الفقرة السابقة). وبوسعنا الآن أن نُلقي ضوءًا ثالثاً مكمّلاً لها، ألا وهو النقد التاريخي.

النقد التاريخي، أي البحث عن حدث يسوع

في هذه الفقرة نحن بصدد معرفة الحدث

(Evénement) — من أقوالٍ وأعمال وأحداث — الذي عاشه يسوع الناصري. وكما رأينا سابقاً. لا نستطيع أن نتصوَّر «الحدث» في صيغته المجرّدة. بل هو ممزوج «بالمعنى». أي بقراءته في ضوء القيامة. فالسؤال الذي نواجهه الآن هو التالي: هل يمكن التأكُّد من صحة «الحدث» الذي لم يمسّه «المعنى». أي القراءة الفصحية؟ ألم يمسّ الموت / القيامة حقيقة الحدث قبل الفصحي أو تاريخيته حتى إنه لا مكان للوصول إليه (كما ادّعى بولتمان)؟

للردّ على مثل هذا السؤال الوجيه. سنتجوّل في الانجيل. فنحلّل بعض أقوال يسوع ثم أعماله فأحداثه. ونبيِّن كيف أنه من الممكن تماماً الوصول إلى الصحّة التاريخية العائدة إلى حدث يسوع الناصري وحياته الأرضيّة قبل موته / قيامته.

(١) **أقوال يسوع**: ينشأ السؤال عن أقوال يسوع بسبب الاختلافات الظاهرة في الروايات. يروي متى الصلاة الربّية مثلاً في صيغة تختلف عنها عند لوقا. وكذلك ثمة أربع روايات لعشاء التقديس (المتوازيات، وبولس في ١ قور ١١ / ٢٣ +) تختلف في الصيغة وإن في تفاصيل طفيفة. فما الذي قاله يسوع بالضبط؟ في تحليلنا لتسكين العاصفة أيضاً وجدنا اختلافاً في كلام يسوع.

ومن جهة أخرى يتساءل المفسّرون هل صرّح يسوع بتفاصيل آلامه وصلبه وموته - كما وردت في الأناجيل؟ أم وضع الانجيليّون التفاصيل على لسانه. في حين أنه لم يتنبأ في الواقع إلّا بواقعة موته / قيامته. شأن مجمل الأنبياء؟ هذا ينطبق أيضاً على تنبّؤاته عن خراب أورشليم...

كل ذلك حمل المفسّرين التابعين للمدرسة النقدية التاريخية المتطرّفة على البحث عن «الكلمات نفسها» التي تفوّه بها يسوع (باللاتينية: **(ipsissima verba)**

وتوصّل النقد التاريخي إلى بعض النتائج. وإنْ كانت طفيفة نادرة. فمما لا شكّ فيه مثلاً أن يسوع استخدم الكلمات الآتية: «أبّا»، «الابن» «طليطا قوم». «الحق الحق أقول لكم». «زمّرنا لكم...». لأن صيغتها آراميّة. وهي غير واردة في العهد القديم. فهي من ابتكار يسوع (خاصة تسمية الله «أبّا» والمسيح «الابن»).

ولكن لا تزال التفسيرات مختلفة. فهل قال يسوع في الصلاة الربّية: «أيّها الآب السماوي» (متى ٦ / ٩ ومر ١١ / ٢٥). وهي أقرب إلى جُمَل الأناجيل. أم: «أبّا» (لو ١١ / ٢) وهي أقرب إلى وثيق العلاقة بينه وبين الآب. أم تأثّر لوقا باستخدام الكلمة في تعليم بولس (راجع غل ٤ / ٦ روم ٨ / ١٥)؟ إنّ المفسّرين مختلفون في ذلك. وكذلك هل قال: «طوبى للفقراء» (لو). أم «للفقراء بالروح» (متى)؟ أي هل كان قصده اجتماعيًّا (لو) أم روحيًّا (متى)، أم الاثنين معاً؟

وكذلك هل قال يسوع لرئيس الكهنة في محكمته: «أنا هو» (مر ١٤ / ٦٢). أم «أنت قلت» (متى ٢٦ / ٦٤)؟ هنا يتدخّل القصد اللاهوتي الخاص بكلّ لاهوتي. فعند مرقس يصل الكشف عن شخص يسوع إلى قمّته في المحاكمة:

فقصد مرقس «إعلاني». في حين أنه عند متى يظهر تحفّظ يسوع في أن يُسيء المستعمون فهم مسيانيته الحقيقية. وهذا يعني أن قصده «تعليمي» أكثر منه «إعلاني». وأما عند لوقا (٢٢ / ٦٧ — ٧٠). فثمة سؤالان موجّهان إليه، وثمّة بالتالي ردّان ليسوع أحدهما تعليمي («لو قلت لكم لَما صدّقتم»). وثانيهما إعلاني («أنا هو»). وخلاصة القول أنه من الصعب معرفة «الكلمات نفسها» التي تفوّه بها يسوع. إذ إنّ كلّ إنجيلي أضفى عليها قصداً لاهوتيًّا معيّناً.

إلّا أن المقارنة بين المتوازيات من جهة، ويوحنا من جهة أخرى، تقودنا إلى تفضيل رواية يوحنا التي تتميّز عادةً بدقة أكبر. ففي رواية طرد الباعة من الهيكل مثلاً، يقول يسوع في رواية يوحنا: «ارفعوا هذا من ههنا، ولا تجعلوا من بيت أبي بيت تجارة» (٢ / ١٦)، في حين أن متى استشهد بالكتاب واضعاً على لسان يسوع قول أشعيا ٥٦ / ٦ : (مكتوب: «بيتي بيت الصلاة يدعى، وأنتم تجعلونه مغارة لصوص» ٢١ / ١٣). فمن الأفضل الاعتماد على رواية يوحنا، فهي أكثر اقتراباً من الواقع المحتمل حدوثه.

وكذلك تتّفق الروايات الأربع لعشاء التقديس باستخدام لفظة «صوما» (sôma) اليونانية (أي الجسد، كما تترجمها النصوص العربية)، في حين أن يوحنا يستخدم كلمة «صاركس» (sarx) اليونانية (أي اللحم) وهي ترجمة للكلمة العبرية «بسر» (قارنها بالعربية: «بشر»). ومن المحتمل أن يكون يسوع قد قال: «من أكل لحمي وشرب دمي...»، لا «من أكل جسدي» أو «هذا هو جسدي»، ففي العقلية اليهودية الزوجان هما «لحم / دم»، لا «جسد / دم».

وأخيراً لمعرفة صحّة كلمة تفوّه بها يسوع، يمكن الاعتماد على مجمل الانجيل لمقارنتها به. فعلى سبيل المثال، إذا تساءلنا: هل قال حقًّا يسوع «سأضرب الراعي فتتبدّد خراف القطيع» (متى ٢٦ / ٣١، عن زك ١٣ / ٧)، يمكن مقارنة هذا القول بمجمل الإنجيل، فنجد أن يسوع شبّه نفسه فعلاً بالراعي (راجع مثلاً يو ١٠)، فلا داعي للشكّ في صحة قوله هذا.

هذه هي بعض مبادئ التحقُّق من صحة كلمات يسوع (المقارنة بالعهد القديم، المقارنة بمجمل الانجيل، المقارنة بين الأناجيل في رواياتها المختلفة). ولكن النتيجة في نهاية الأمر ضئيلة لمعرفة «الكلمات نفسها» التي تلفّظ بها يسوع. ولكن ليست هذه المعرفة هي الأهم، فلن نعرف أبداً ما قاله يسوع بالحرف الواحد — إلّا في حالات نادرة — بسبب تعدّد الروايات الشفهيّة التي استند إليها الانجيليّون، وبسبب قصدهم اللاهوتي الخاص في ضوء القيامة. فهناك ما هو الأهم وهو مبدأ لاهوتي يختصّ بالايمان أكثر ممّا يختصّ بالنقد التاريخي.

إنّ صحّة كلمة توردها الأناجيل لا تعتمد أساساً على كون يسوع قد قالها حرفيًّا — كأن الأناجيل تسجّل كتابيًّا صوته في مثل آلاتنا

التسجيليّة — بل صحّة كلماتها تعتمد أساساً على الروح القدس الذي هو ضمان صحّة ما ورد في الأناجيل، وفقاً لوعد يسوع نفسه بأن الروح سيذكّر التلاميذ بكل ما قاله يسوع وعمله وسيعلّمهم كلّ الأشياء (يو ١٤ / ٢٦)، وسيرشدهم إلى الحق كلّه وسينبئهم بكل ما سيحدث ليسوع (يو ١٦ / ١٣). فالروح القدس هو ضمان صحّة كل ما ورد في الأناجيل، حتى لو لم يورد الانجيليّون أقوال يسوع بحرفيّتها، إلّا أن الروح القدس يضمن أن ما ورد أمين لقصد يسوع ونيّته. فليس الأهم ما «قاله» يسوع، بل ما «أراد قوله»، وهذا ما **يضمنه الروح**.

ونحن هنا على مستوى إيماني لا نقدي (نقد خارجي أو داخلي أو تاريخي). والإيمان لا يستند إلى براهين، بل إلى إشارات. وأما النقد فقد يساعد على فهم أقوال يسوع وعلى التمييز بين القول ومعناه، ولكنّه لا يمنح الإيمان. وأما حجة الايمان فليست النقد، بل الروح القدس.

(٢) **أعمال يسوع**: كل ما سبق أن بيّنّاه عن أقوال يسوع يمكن تطبيقه على أعماله وخاصةً على معجزاته. وقد اعتدنا ذلك في تحليلنا عن تسكين العاصفة. وكما أشرنا إلى بعض المقاييس لضمان صحّة بعض أقوال يسوع (المقارنات المختلفة)، نقدّم هنا مبدأين لقراءة أعمال يسوع قراءة نقدية تاريخية.

أما المبدأ الأول فهو مبدأ القصد اللاهوتي الخاص بكل انجيلي. ولقد اعتدناه منذ البداية. ونريد أن نقدّم هنا مثلاً آخر وهو شفاء يسوع صبيًّا مصروعاً. في حين أن لوقا يورد المعجزة قاصداً أن يروي معجزة بكل معنى الكلمة (الاسهاب في وصف المرض، فشل التلاميذ في شفائه، قلّة إيمان الجيل الكافر الفاسد، دهشة الحاضرين من عظمة الله في انتصار يسوع على الشيطان (لو ٩ / ٣٧ — ٤٣)، يدقّق متّى في تعليم يسوع عندما يسأله التلاميذ لماذا فشلوا: «لو كان لكم إيمان بمثقال حبّة من خردل...»، ولا يُظهر إعجاب الحاضرين. لأن هدفه تعليمي أكثر منه سَرْد معجزة (متى ١٧ / ١٤ — ٢١). أمّا مرقس فإنّه يدمج القراءتين للحدث نفسه فيُظهر مستوى المعجزة (قدرة يسوع على الشيطان)، ومستوى التعليم (إن المؤمن يستطيع كل شيء، آمنتُ فشدِّد إيماني الضعيف، إنّ هذا الجنس لا يُطرد إلّا بالصلاة) (مر ٩ / ١٤ — ٢٩). فالقصد اللاهوتي في الروايات المختلفة ينطلق من حدث وقع حقاً، لا يبتكره الإنجيلي بسبب قصده اللاهوتي، بل يضفي على الحدث المعنى اللاهوتي الخاصّ به. فالنقد التاريخي إذاً لا يُعجِز وقوع الحدث، بل يحمل على الاعتراف به.

ولنأخذ مثلاً آخر يبدو من خلاله اختلاف وجهات نظر الإنجيليّين حول حدث تاريخي، وهو الخيانة التي قادت يسوع إلى الصلب والموت. سردها مبنيّ على ثلاث أحداث: قيافا ضدّ يسوع / الشعب مع يسوع / يهوذا يخون سيده. غير أن كل إنجيلي ينسِّق هذه المعطيات الثلاث بطريقة خاصة به.

أمّا المبدأ الثاني لفهم أعمال يسوع، فهو خاص

بالجماعة الرسولية التي أرادت من خلالها أن تساعد إيمان المؤمنين في سَرْد أحداث جرت فعلاً ليسوع. فإن أورد حتى مرتين سؤال يهوذا الخائن ليسوع: «هل أنا؟» (متى ٢٦ / ٢٢ — ٢٥)، فهذا يعني أن على المستمع أو القارئ أن يتساءل بدوره هل هو خائن أم مؤمن. وأمّا تصوير سمعان القيرواني حاملاً الصليب مع يسوع، فيستهدف تصوير التلميذ النموذجي الذي يتبع معلّمه (لو ٢٣ / ٢٦)، كما قال يسوع نفسه سابقاً انّه على التلميذ أن يحمل صليبه كل يوم (لو ٩ / ٢٣).

(٣) أحداث جرت مع يسوع: نتطرّق في هذه الفقرة إلى بعض الأحداث التي جرت ليسوع والتي تمثّل للمفسرين بعض المشاكل. فعلى سبيل المثال: هل حدثت حقًّا تجارب يسوع في البريّة؟ لا شيء يفرض رفضها، فهي بلا شكّ ذكرى ليسوع قصّها على تلاميذه لإعلان رفضه لأي «آية» عجيبة، وبالتالي لتطهير فكرة المسيانيّة التي فهمها الشعب فهماً خاطئاً، علاوةً على إظهار الصراع بين يسوع والشيطان والذي هو بداية للصراع النهائي في أثناء الآلام وعلى الصليب (والذي بيّنه يوحنا أكثر من غيره) حيث ينتصر يسوع على الشيطان رغم المظاهر المضادّة لذلك.

وكذلك هل تجلّى يسوع فعلاً على الجبل؟ يدّعي بولتمان أن التجلي ما هو إلّا تأليف الجماعة المسيحية بعد الفصح، لإثبات ألوهيّة يسوع، وهي تشابه ظهورات يسوع بعد قيامته. لا شيء يثبت كلام بولتمان هذا.

فإذا كانت ظهورات يسوع بعد قيامته تتّسم بمنتهى البساطة، يتّخذ التجلي، الذي يظهر فيه مجد يسوع، صورةً غير عاديّة مخالفة تماماً للظهورات. فالتجلّي «ظهور الله» (Théophanie) هو مشابه للعماد والعنصرة، وقد حدث فعلاً.

وبطرس الشاهد يذكّر بذلك في رسالته كحدث جرى وشاهده: «لم يكن ذلك منّا اتّباعاً لخرافات مصطنعة، بل لأننا عاينّا جلاله... صوتٌ يقول: «هذا هو ابني الحبيب الذي عنه رضيت». وذاك الصوت قد سمعناه آتياً من السماء إذ كنّا معه على الجبل المقدس» (٢ بط ١ / ١٦ — ١٨).

ونريد هنا أن نتعمّق في حدثَين مهمَّين: الطفولة والآلام.

أ) **أناجيل الطفولة**: أثارت روايتا متى ولوقا لطفولة يسوع أسئلة عديدة جعلت لفيفاً من المفسّرين يشكّون في صحّة حرفيّة ما ترويانه، في حين تمسّك البعض الآخر بحرفيّة ما تدوّنان من تفاصيل.

لماذا هذا السؤال؟ هناك ثلاثة أسباب:

— الطابع العجائبي (ملائكة وأحلام ونجمة ومجوس) الذي يقرّب هذه الروايات من الأناجيل المنحولة ويُبعدها عن الطابع البسيط العادي في بقيّة الأناجيل الأربعة.

— كثرة الشواهد الكتابيّة التي توحي أن النصّ مصطنع وكأنه لم يحدث فعلاً.

— كون مرقس ويوحنا لم يصرّحا بكلمة واحدة عن طفولة يسوع (وكذلك بقيّة أسفار العهد الجديد).

وللرد على هذه الأسئلة، يجب أن نقارن بين روايات الطفولة وبقيّة الكتاب المقدس، علّنا نجد فيه رداً عليها. ويقتصر بحثنا هنا على ثلاث نقاط: البشارات في أناجيل الطفولة، المجوس، بتوليّة مريم.

١ — البشارات: بشّر ملاك الرب زكريّا ويوسف ومريم. وبُنية هذه البشارات معروفة في العهد القديم، فاستلهمها لوقا ومتى في رواياتها، وهي تتضمن:

١) اسم المدعو الذي يرسل إليه الله ملاكه (ابراهيم أو سارة، موسى، حنّة أم صموئيل...).

٢) تذليل صعوبة تعترض تحقيق وعد الله وهي عادة أن المرأة عاقر (سارة، حنّة، اليصابات، بتوليّة مريم).

٣) آية من الله كعربون لتحقيق وعده (حبل أليصابات،آية لحبل مريم).

٤) لاسم الطفل معنى (يسوع: «الله يخلّص» — عمانوئيل: «الله معنا») موسى معناه: («مخلّص من المياه» —).

٢ — المجوس: هل المجوس أشخاص حقيقيّون أم خياليّون يرمزون إلى شيء معيّن؟ نجد في حياة موسى حين كان طفلاً صغيراً قصّة مماثلة لقصّة يسوع الذي بحث عنه المجوس، وهي مدوّنة في «مدراش» (أي قصّة تقوية تكثر فيها الشواهد الكتابيّة). للمجوس الذين زاروا يسوع سوابق في الكتب اليهودية التقويّة، بل في الكتاب المقدس (العهد القديم) نفسه (قارن مثلاً بين خر ٤ / ١٩ — ٢٠ ومتى ٢ / ١٩ — ٢١، وكذلك بين خر ٢ / ١٥ ومتى ٢ / ١٣، ١٤ و١٦، وكذلك زك ٩ / ٩). يتّضح من خلال ذلك أن يسوع يحقّق الخلاص النهائي، والمجوس رمز للخلاص الذي يشمل البشرية بأجمعها. ولكن لا يعني ذلك إطلاقاً أن زيارة المجوس لم تَحدُث فعلاً، وإنّه لمن الصعب البتّ في ذلك بصفة قاطعة.

٣ — بتولية مريم: أراد بعض العلماء تفسيرها على أساس أن في الأساطير الإغريقيّة تزاوجاً بين الآلهة وبنات البشر ينتج عنه آلهة بشريّون. ولكن واقع مريم يختلف تماماً عن هذه الأساطير، إذ ليس هناك أيّ تزاوج إطلاقاً، بل بتوليّة، فلم يمسّها إنسان أو إله، بل الروح القدس ظلّلها فحبلت بيسوع. وبعض المفسّرين قاربوا هذه الرواية من نبوءة أشعيا ٧ / ١٤ («إن عذراء تلد»). ولكنّ الكلمة اليونانية بارثينوس (Parthénos) لا تعني بالضرورة «عذراء»، بل «شابة» بدون أي إشارة إلى البتوليّة أو عدم البتوليّة. وممّا لا شكّ فيه أن مريم شهدت بما حدث لها من بشارة وقصّته شخصيًّا على لوقا الذي أورد شهادتها.

٤ — قتل الأبرياء: رغم الإحساس بضخامة القصة الواردة في الأنجيل، هناك أبحاث اجتماعيّة تدلّ على أن عدد الأطفال في بيت لحم دون السنتين لم يتعدّ أكثر من ٢٠ أو ٣٠ طفلاً. فليس الحادث مذهلاً،كما يتصوّره البعض، بل من الممكن أن يكون قد حدث فعلاً، لا سيَّما وأن هيرودوس (وعائلته عامةً) كان سفّاحاً، وهذا من المعروف تاريخيًّا.

نتيجةً لهذه الجولة السريعة عن أناجيل الطفولة، ينبغي لنا أن نتحاشى طرفَين متطرّفين، أحدهما فهم تفاصيل أناجيل الطفولة فهماً حرفيًّا حسيًّا، والآخر رفضها رفضاً باتاً كأنها لم تحدث. فالواقع يفرض علينا أن نقرّ بحدوث ما هو وارد في الأناجيل، غير أنه يجب ألَّا نفهم بالحرف الواحد ما هو مصوَّر تصويراً كتابيًّا أو رمزيًّا.

ب) أناجيل الآلام: الأناجيل الأربعة متّفقة على أنّ يسوع مات يوم الجمعة (مر ١٥ / ٤٢ ويو ١٩ / ٣١)، إلَّا أن هناك فرقاً بين الأناجيل الإزائية من جهة ويوحنا من جهة أخرى، فيما يختص بعيد الفصح وخاصةً عشاء العيد الذي يتم عادةً عند اليهود مساء اليوم السابق للعيد. فبحسب روايات الإزائيين، أكل يسوع عشاء الفصح في أول يوم من الفطير، أي أنّ العشاء الفصحي كان مساء الخميس (مر ١٤ / ١٢ و١٧ + ولو ٢٢ / ٧ و١٥ +)، والعيد يوم الجمعة.

وفي هذا الترتيب مشكلة، بل استحالة، لأننا إذا افترضنا أن العشاء الفصحي والاعتقال والمحاكمة الأولى وقعت الخميس مساء (عشية العيد)، وأن باقي المحاكمة، الصلب، الموت والدفن وقعت يوم الجمعة، فكيف يتم في يوم العيد (الجمعة) كل ذلك؟ وكيف يعود سمعان القيرواني من حفلة يوم العيد (متى ١٥ / ٢١)؟ وكيف يتمّ شراء الأكفان (مر ١٥ / ٢٦) وتحضير الطيب (يو ٢٣ / ٥٦) يوم العيد؟ وكيف يطلب اليهود من بيلاطس حرّاساً في غد العيد وهو كان عيداً أيضاً (متى ٢٧ / ٦٢)؟ فمن المستحيل أن يتم كلّ ذلك يوم العيد والمساء الذي قبله. وكذلك من جهة رواية يوحنا، حتى إن العشاء الفصحي كان هذه السنة يوم الجمعة مساء (١٨ / ٢٨) والعيد يوم السبت (١٩ / ٣١). فكيف التوفيق بين التقليدين المتناقضين؟ من نصدّق: الإزائية التي تجعل العيد يومي الخميس مساء والجمعة، أم يوحنا الذي يحدّد العيد يومي الجمعة مساء والسبت؟ للخروج من هذا المأزق، حاول المفسّرون محاولات عديدة لم تصل إلى إزالة التناقض. غير أنّ هناك افتراضين نالا نوعاً من الاجماع نوردهما هنا:

١ — افتراض الآنسة أنّي جوبير Annie Jaubert: يعتمد هذا الافتراض على اكتشافات قمران قبل منتصف القرن العشرين، فهي أوضحت أنه كان هناك تقويمان في أيام يسوع: التقويم اليهودي الرسمي والتقويم الخاص بقمران (وهو غير رسمي، رغم أنّه كان معروفاً من حوالى خمسة قرون). أمَّا التقويم الرسمي فكان قمريًّا، وأما القمراني فشمسياً (كل فترة: ٣٠ يوماً + ٣٠ + ٣١ = ٩١ يوماً). وبحسب اكتشافات قمران في المغارة الرابعة، يتّضح أن عيد الفصح كان يوماً ثابتاً (لأن التقويم شمسي لا قمري): ١٤ من نيسان. وهكذا تفترض الآنسة آني جوبير أن الإزائية استخدمت التقويم القمراني، مؤكِّدةً أن يسوع تناول عشاء الفصح واعتُقل وحوكم في العيد، فاستحال أن يتّفق ذلك مع العيد الرسمي. فنقترح الترتيب الآتي:

عشاء الفصح : الثلاثاء مساء
المحاكمات : الأربعاء والخميس
الصلب : الجمعة مساء وهو عشيّة عيد الفصح اليهودي الرسمي.

ومن ثمّ استطاع اليهود أن يقوموا بالاعتقال والمحاكمة والصلب والدفن قبل العيد، وقد مات يسوع الساعة الثالثة من بعد ظهر الجمعة، قبل أن يأكل اليهود رسميًّا الفصح في السادسة ببضع ساعات.

وممّا يؤيّد هذا الافتراض (وهو معقول ومنطقي ودون أيّة مخالفة للشريعة)، أن الشريعة اليهودية تفترض مرور يوم كامل بين المحاكمة وتنفيذها، فيكون الحكم قد أُعلن يوم الخميس ونُفّذ يوم الجمعة. ثم أنّ هيجان الشعب يكون هكذا قد قام تدريجيًّا (مدّة يومين كاملين)، ذلك الشعب الذي كان قد هتف بيسوع قبل أن يطالب بيلاطس بالصلب ببضعة أيام، فضلاً عن أن تنقّلات يسوع من قصر إلى قصر (الكهنة — بيلاطس، أكثر من مرة هيرودس) تستدعي وقتاً طويلاً ولا يمكن أن تتمّ في أكثر من مرّة في نحو ١٥ ساعة (بين الاعتقال والموت).

٢ — افتراض الأب كزافيه ليون دوفور Xavier Léon-Dufour s.j. : اعتماداً على اللاهوتي ترتليانس Tertullien في بداية القرن الثالث، يفترض الأب كزافييه ليون — دوفور أن يسوع لم يتناول عشاء الفصح (قبل اعتقاله ومحاكمته)، بل عشاء عاديًّا (مساء الخميس، ليلة آلامه) أضفى عليه طابعاً فصحيًّا.

وهو يعترف بوجود تقويمين في أيام يسوع، ولكنه يذكّر بأن عيد الفصح المسيحي كان، منذ بداية المسيحية، يتّبع التقويم الرسمي القمري، فلم يكن ثابتاً (الخميس — الجمعة — الأحد)، فكان يوم العيد يختلف من سنة إلى أخرى (١٤ من نيسان قمري لا شمسي). وكذلك الصوم المسيحي — الأربعاء والجمعة (خاصّةً) لم يُحدَّد لأنّ يسوع مات يوم الجمعة (إذ إنّ كل سنة كان موعد العيد يتغيّر)، بل لتمييزه عن صوم اليهود الذين كانوا يصومون الاثنين والخميس (راجع في هذا الصدد الديداكي Didachè وهو أقدم الكتب التي تورد تقاليد المسيحيّة القديمة).

أما افتراض الآنسة آنّي جوبير، فهو لم يفرض نفسه رغم دقّته العلمية. فبشأن طول المحاكمة (يومين على الأقل)، من المعلوم ان الشريعة كانت تفرض مرور يوم بين الحكم وتنفيذه، غير أن الأناجيل توحي بسرعة المحاكمة. فقد أسرع الكهنة في الحكم — خلافاً للتقاليد — لأن العيد (مساء الجمعة) كان يقترب، فاستغلّوا هذا السبب ليخالفوا شريعتهم، وكان ذلك في صالحهم، كيلا يغيّر الشعب رأيه.

ويقترح ليون — دوفور التسلسل الآتي :

— الخميس مساء : العشاء غير الفصحي، ولكن في جو فصحي.

— نهاية مساء الخميس : الاعتقال عن يد جنود رومانيّين، ممّا يفترض اتّفاقاً مسبقاً بين بيلاطس واليهود والجنود لسوقه إلى مقرّ رئيس الأحبار للمزيد من الاستفسار (راجع موقفاً مماثلاً من رسل ٢٢ / ٣٠).

— الخميس ليلاً: محاكمة قصيرة عند حنّان — ثمّ الإهانات.

— الجمعة عند صياح الديك: المحاكمة في المجلس المجتمع لذلك، ممّا أوحى إلى بيلاطس بأنّ اليهود حاكموا يسوع بحسب شريعتهم التي تستدعي الصلب والموت، كما أوحى إلى الشعب بأنّ يسوع يستحقّ فعلاً هذا العقاب.

— الجمعة صباحاً في السادسة: عند بيلاطس[٣٠] — حتى الثاني عشر في المحاكمات المختلفة[٣١].

— الجمعة في الثالثة: الموت على الصليب، في الساعة التي يُذبح فيها الحمل لعشاء الفصح. فيسوع هو الحمل المذبوح الحقيقي.

محاولة لتحديد أماكن رسالة يسوع

ثبت لنا في بحثنا عن «يسوع التاريخ»، ومن خلال النقد الخارجي والداخلي والتاريخي، أنه بمقدورنا أن نصل في الأناجيل إلى معرفة يسوع الناصري في حياته الأرضيّة قبل موته / قيامته. وفي هذه المرحلة الأخيرة من بحثنا عنه، هذه محاولة لتحديد أماكن رسالة يسوع الأرضية:

(١) ثمة اتفاق تامّ بين الأناجيل الأربعة على أن رسالة يسوع بدأت بالعماد وانتهت بالصليب، أي من نهر الأردن إلى أورشليم.

(٢) وينفرد يوحنا في الحديث عن بداية رسالة يسوع في منطقة عبر نهر الأردن. فيروي أن تلميذي يسوع الأوّلين — اندراوس ويوحنا نفسه — كانا تلميذي المعمدان (١ / ٣٥+) وأن تلاميذ يسوع كانوا يعمّدون مثلما كان يفعل المعمدان (٣ / ٢٢ — ٢٣ و٤ / ٢). هكذا يكون يسوع قد استهلّ رسالة عبر الأردن، في اليهودية، في ظلّ المعمدان (٣ / ٢٥ — ٢٦، ٤ / ٣)، متأثّراً بالتالي بشخصيّته وتعليمه وأعماله.

(٣) وتأتي مرحلة الجليل — ويبدأ يسوع فيها رسالته بحسب الازائيّين — وهي أساس رسالته ومكان نجاحه. وفي هذه المرحلة، تطوّر تعليمه من تعليم اسكاطولوجي[٣٢]، يتعلّق بالحصاد ويوم الدين: «حان الوقت واقترب ملكوت الله، فتوبوا وآمنوا بالبشارة» (مر ١ / ١٥ ومتى ٣ / ٢)، إلى تعليم كنسي زمني يختص بنموّ ملكوت السموات قبل الحصاد («ملكوت الله هو فيكم» لو ١٧ / ٢١)، أمثال ملكوت السموات: «يشبه ملكوت السموات...»). وفي هذه الفترة، أوفد يسوع تلاميذه إلى الرسالة: «دعا تلاميذه الاثني عشر، فأولاهم سلطاناً...» (متى ١٠ / ١+)، وذلك

٣٠. هل جُلد يسوع قبل حكم بيلاطس بالصلب أم بعده (مر ومتى)؟ انه لمن الصعب البتّ في الموضوع بطريقة قاطعة، إلّا أن الاعتماد على يوحنا أضمن لأنه أدق وقد عايش الحوادث عن كثب.

٣١. نكران بطرس: لو: قبل محاكمة يسوع=بيئة تعليمية — الآخرون: في أثناء المحاكمة: في حين أن يسوع يشهد أنه المسيح، ينكره بطرس=بيئة إعلانية.

٣٢. إسكاتون (eschaton) باليونانية تعني «نهاية الأزمنة».

إثرَ اعترافه بأنّ «الحصاد كثير ولكن العملة قليلون» (متى ٩ / ٣٧)[٣٣] .

(٤) يلي هذه الفترة قطع العلاقة مع الجليل، وهذا ما تشير إليه الإزائيّة. ويعود ذلك إلى اسباب عديدة :

+ هيرودس، بعد قتله للمعمدان (مر ٣ / ٦ و٦ / ١٤ ـــ ١٦)، أراد أن «يرى» يسوع (لو ٩ / ٩) ليقتله هو الآخر بسبب نجاح رسالته (لو ١٣ / ٣١).

+ الكهنة والفريسيّون، أمام نجاحه في الجليل، أخذوا ينتقدونه ويقلّلون من أهميّته في نظر الشعب، معتبرين أن معجزاته تجري بقدرة رئيس الشياطين (متى ١٢ / ٢٢ ـــ ٢٤).

+ الجموع الجليليّة لم تفهم حقيقية مسيانيّته. فتكثير الخبز والسمك جعلهم ينبهرون بشخصه، معتبرين إيّاه أرضيًّا. فكأنّ هذه المعجزة هي مأدبة الوداع، إذ لم يتوبوا (لو ١٠ / ١٣ ـــ ١٥).

لذلك غيّر يسوع المكان، بل الاتجاه، فخصّص وقته لتكوين تلاميذه والاهتمام بهم. ويبدأ هذه المرحلة بأن ذهب إلى البريّة معهم (مر ٦ / ٣١)، ثم ترك الجموع وذهب إلى الجبل[٣٤] ، وأمر تلاميذه بأن يركبوا السفينة ويعبروا إلى الشاطئ المقابل نحو **كفرناحوم** (يو ٦ / ١٤ ـــ ١٧). وفي هذه الفترة، بعد قطع العلاقة مع الجليل وفي أثناء اهتمامه بتلاميذه، أجرى بعض المعجزات، لكن دون التعليم (متى ١٤ / ١٤ ومر ٦ / ٣٤ ولو ٩ / ١١).

(٥) الصعود إلى أورشليم هو المرحلة الأخيرة من رسالته التي استغرقت حوالى ثلاثة أشهر، بعدها ذهب مرّة أخرى إلى عبر الأردن، ثم عاد إلى أورشليم ودخلها حيث استقبله الشعب بسعف النخل (يو ١٢ / ١٢ +).

ونتساءل لماذا صعد إلى أورشليم : أليُعلّم فيها بحريّة؟ أم ليموت؟ لم يجهل يسوع أن الرؤساء الدينيين والمدنيين لن يقبلوه أكثر مما قبله سواهم في الجليل، ولا سيّما في العاصمة، مدينة الهيكل. ولكنه كان ذاهباً بمحض إرادته نحو أورشليم ليواجه فيها الموت. ويتمحور تعليمه في هذه الفترة حول شخصه وضرورة الإيمان به (يو ٥ ـــ ١٠)، في حين أنه، وفي الجليل، ركّز تعليمه على الملكوت (الحاضر والآتي). وقد كثُرت فيها المجادلات مع أعدائه حول شخصه.

وثمة سؤال آخر : هل صعد يسوع إلى أورشليم مرّة واحدة (الإزائيّة) أم ثلاث مرّات، كلّ مرّة في زمن عيد الفصح (يو ٢ / ١٣ + و٧ / ١٠ + و١٢ / ١٢ +)؟ الراجح أنه صعد ثلاث مرّات مثلما ورد في يوحنا[٣٥] ونرى في الإزائية

٣٣. يضع مرقس هذه الرسالة بعد فترة الجليل (٦ / ٦ + و٣٠)، إلّا أنه يبدو أن متى أقرب منه إلى الواقع.

٣٤. كما بدأ رسالته بالصوم والصلاة في البرية أربعين يوماً وليلة واختياره لتلاميذه بالصلاة في الجبل، وآلامه بالصلاة في بستان الزيتون.

٣٥. من هنا نحدّد عادةً أن رسالة يسوع دامت ثلاث سنوات. وقد قاده الصعود الثالث إلى الموت. غير أن بعض المفسّرين يرون أن مجمل رسالته لم تدم أكثر من سنة، والبعض أنها امتدّت إلى أربع سنوات.

إشارات إلى ذلك.

فيقول لوقا على سبيل المثال: «أورشليم، كم من مرّة أردت أن أجمع بنيك..» (لو ١٣ / ٣٤ — ٣٥)، مما يفترض أن يكون قد صعد إليها أكثر من مرّة. ويصوّر لنا لوقا يسوع صاعداً إلى أورشليم صعوداً استغرق وقتاً طويلاً: «لما حان الوقت الذي فيه يُرفع، عزم على المضي إلى أورشليم. فأرسل رسلاً يتقدّمونه» (٩ / ٥١ — ٥٢)، ويذكّر ذلك مرّة أخرى: «كان يمرّ بالمدن والقرى، فيعلّم فيها، وهو سائر إلى أورشليم» (١٣ / ٢٢)، ومرة ثالثة: «وبينما هو

سائر إلى أورشليم...» (١٧ / ١١). فلوقا، خلافاً لمتى ومرقس، يحذف مرور يسوع بأطراف الجليل (مر ٦ / ٤٥ — ٨ / ٢٦)، ويولي الصعود الطويل إلى أورشليم شأناً كبيراً يتّسم بشيء من التأليف المصطنع. فكما أنه بدأ انجيله في هيكل أورشليم (١ / ٨ +)، وحدّد فيها ظهورات المسيح القائم من الموت، وأنشأ فيها الكنيسة (رسل ١ / ٤ +)، فإنه يجعل لمدينة أورشليم — عاصمة اليهود الدينية — قصداً لاهوتيًّا واضحاً.

وعند مرقس ومتى أيضاً إشارات إلى صعود يسوع إلى أورشليم أكثر من مرّة. فدخوله قبل آلامه واستقبال الشعب له بحفاوة (متى ٢١ / ١ +) يفترض أنه كان معروفاً، ولذلك حاول رؤساء الكهنة اعتقاله دون إثارة الشعب (متى ٢٦ / ٥)، وربّما تذكّروا مروره السابق بأورشليم. ثم، عند اعتقاله، قال هو للعصابة: «كنت كل يوم بينكم أعلّم في الهيكل...» (مر ١٤ / ٤٩).

(٦) **الخلاصة**: لقد ميّزنا بين فترتين في تعليم يسوع: الأولى وهي نداء بالملكوت والتوبة. والثانية تركيز على شخصه. يتخلّلها اهتمامه الخاص بتلاميذه.

ويمكّننا هذا التقسيم من فهم بعض أقواله. فمن الواضح مثلاً أنه. عندما تحدّث عن تطويبة الاضطهاد. كان هذا التعليم يتعلّق بالفترة الثانية المركّزة على شخصه: «طوبى لكم إذا شتموكم... من أجلي» (متى ٥ / ١١) «طوبى لكم إذا أبغضكم الناس ورذلوكم وشتموا اسمكم ونبذوه كأنّه عار» (لو ٦ / ٢٢). في حين أن بقيّة التطويبات تخصّ الفترة الأولى المركّزة على «ملكوت السموات» (متى ٥ / ١ + ولو ٦ / ٢٠ +). ومن المحتمل أن يكون قد حدّث تلاميذه عمّا دار عند صومه في البريّة في المرحلة الثانية الخاصّة بشخصه. وإن حدثت في بداية رسالته. ومعنى هذا التطوّر في تعليم يسوع أنه فسّر لتلاميذه وللشعب معنى أقواله وأفعاله. ففي البداية، كانوا يسمعون ويرون، وبدأ تدريجيًّا يلقي ضوءا على شخصه الذي يقوم بهذه الأقوال والأعمال لفهمها فهماً عميقاً صحيحاً.

الخاتمة

وأخيراً نتساءل هل في كل ذلك من يقين؟ نعم ولا. لا، بقدر ما لا نجد في التاريخ — في أي تاريخ، دينيًّا كان أم مدنيًّا — يقيناً، فاليقين في العلوم الرياضيّة فقط. نعم، لأن كل ما قلناه

متين. بل اليقين الحقيقي لا يكمن في تحليلنا الطويل هذا، بل في الإيمان بأنّ الأناجيل كلمة الله يضمن الروح القدس صحّتها. فنحن في نهاية الأمر على مستوى إيماني، لا علمي. صحيح أننا استخدمنا علم تفسير الكتاب المقدس (الذي سيزداد تقدُّماً بلا شك، ونحن في بدايته)، ولكننا أمام «سرّ» يسوع المسيح. فكان يسوع يطالب مستمعيه بأن يتّخذوا موقفاً منه: «من هو ابن الانسان على حدّ قول الناس؟» — «من أنا على حدّ قولكم أنتم»؟ (متى ١٦ / ١٣ +)، وإنجيل يوحنا بالذات عبارة عن ضرورة اتّخاذ موقف صريح تجاهه.

وأما يسوع هذا، فهو يسوع «اليهودي» بحسب الجسد، في حياته الأرضية، كما أنه يسوع «المسيحي» بحسب الروح، في قيامته من بين الأموات وفي حضوره للكنيسة. فعندما قام وأظهر نفسه لتلاميذه، قال لهم: «أنا هو بنفسي» (لو ٢٤ / ٣٩)، «وأراهم يديه وجنبه» (يو ٢٠ / ٢٠). فيسوع المسيح القائم هو يسوع الناصري بيديه ورجليه وجنبه وعلاقته بتلاميذه... وهو الروح القدس الذي يمكّن للمسيحي من الربط بين «يسوع القائم» و«مسيح الإيمان»، ربطاً سريًّا. وهو الروح القدس الذي يتيح له بأن يفهم سر الله الذي تجلّى في حياة يسوع الأرضيّة — عندما كان يطالب مستمعيه بأن يتّخذوا موقفاً منه — وفي قيامته من بين الأموات — عندما جعل مشاهديه يؤمنون به. فيسوع المسيح — «يسوع التاريخ» و«مسيح الايمان» — «هو هو، الأمس، اليوم، وإلى الأبد».

الباب الرابع

صحة تاريخية الأناجيل

المقدمة

بعد جولة تفسيرية، ثم تاريخيّة، فأدبيّة، نتوقّف وقفة أخيرة لإلقاء نظرة «دفاعية» (Apo logétique) لإثبات صحّة تاريخيّة الأناجيل الأربعة، بمعنى أنّه لم يمسّها أي انتحال أو تحريف أو ما أشبه ذلك. ونولي هذه النظرة الأخيرة من بحثنا قدراً كبيراً من الأهمية نظراً إلى التهم الموجّهة إلى الأناجيل وإلى الديانة المسيحية.

وسنلقي نظرتنا من زوايا أربع متكاملة: واقعة الأناجيل نفسها منذ الكنيسة الناشئة، مقارنة مضمون الأناجيل بالمجتمع الفلسطيني، مقارنة مضمون الأناجيل بشهادة مؤرخين غير مسيحيّين، مقارنة الأناجيل في ما بينها وبكتب أخرى من العهد الجديد.

واقعة الأناجيل

منذ نشأة الكنيسة، والمسيحيّون يتداولون الانجيل في روايات شفهية ثم تدوين رباعي، كما رأينا. ونريد في هذه الفقرة أن نُظهر أن الأناجيل الأربعة هي كتب رسوليّة من جهة وقانونيّة من جهة أخرى، وأن ندرس مخطوطات الأناجيل دراسة وافية.

رسولية الأناجيل الأربعة وقانونيّتها

دُوّنت الأناجيل الأربعة بسلطة الرسل. فنحن نعلم أن مرقس كان تلميذ بطرس الرسول، ولوقا تلميذ بولس. وهذا لا يمنع من أن يكون إنجيلِ متى قد أصدره تلاميذه بعد إضافات، إذ نُذكر بوجود متى الآرامي ومتى اليوناني، ولا أن يكون

تلاميذ يوحنا قد أصدروا إنجيله. إذ إن الفصل ٢١ مضاف[٣٦]. شأن نهاية انجيل مرقس. وتعود أهميّة الصفة الرسوليّة (Apostolicité) للأناجيل إلى أن الإنجيليين عايشوا يسوع الناصري (ما عدا بولس)، بل عاينوه قائماً إذ ظهر لهم (بما فيهم بولس). ونستنتج من هذا أن رسولية الأناجيل تُثبت بصفة قاطعة أنها لم تكتب مؤخراً ولا خارج سلطة الرسل (كما يشير إليه بعض ممثّلي مدرسة (Formgeschichte)

ونستخلص من ذلك أنّ قانونيّة الأناجيل الأربعة (Canonicité) تعتمد على رسوليّتها، أي أن الكنيسة اعترفت بأن الروح القدس قد ألهمها. رغم ما طرأ عليها من إضافات أو تغييرات كما أشرنا إليه.

وخلافاً للأناجيل الأربعة «الرسولية / القانونية». نجد عديداً من الأناجيل المنحولة (Apocryphes) التي لم تعترف الكنيسة بقانونيّتها، وقد كُتِبت مؤخّراً (في القرن الثالث) ونُسبت إلى أحد الرسل، منها إنجيل بطرس المنحول وإنجيل توما المنحول. وهذه الأناجيل المنحولة تتميّز بفلسفة معيّنة «الفلسفة الغنوصية» (Gnose)، أي نظريّة المعرفة اليونانيّة) وهي تخالف تعاليم الأناجيل الأربعة، أو تحذف من الأناجيل الأربعة ما لا يناسب تعليمها واتجاهاتها الفلسفية واللاهوتية.

هكذا نرى أن الكنيسة في القرون الأولى لم تسلم من خطر التحريف والانتحال، ولكنها تصدّت لهذا الخطر بصرامة، معترفة بالأناجيل الأربعة الرسوليّة القانونيّة فقط.

ويجدر بنا هنا أن نرجع إلى رأي آباء الكنيسة في القرون الأولى بشأن رسوليّة الأناجيل الأربعة وقانونيّتها. فيتّضح لنا أن ثمّة تقليداً قديماً (منذ نهاية القرن الأول الميلادي) ثابتاً ومتواصلاً في شتّى الكنائس التي كانت مستقلّة بعضها عن بعض (رغم اتحادها)، اصطبغ بصبغة تدلّ على أهمية موضوع رسوليّة الأناجيل الأربعة وقانونيّتها.

ونورد شهادات بعض آباء الكنيسة في هذا الصدد:

١ — **كنيسة الاسكندرية**: يؤكد إقليمنضس (Clément) سنة ٢١٢ بأن متّى هو أول الانجيليّين، يليه مرقس الذي كتب انجيله بناءً على طلب محيطه وبموافقة بطرس الذي لم يحبّذ الفكرة في البداية خوفاً من أن يكون كتاباً ميتاً، في حين أن التسليم الشفهي حيّ. ويليه إنجيل لوقا. وظهر أخيراً إنجيل يوحنا وهو روحاني.

ويؤكد أوريجانس (Origène) حوالى سنة ٢٤٥ وجود ٤ أناجيل، أوّلها متى الآرامي، ثم مرقس، فلوقا (وهو تلميذ بولس)، وأخيراً يوحنا.

٣٦. إن ما يدفع إلى هذا الحكم أن نهاية الانجيل في ٢٠ / ٣١ (ويوازيها ٢١ / ٢٥). ثم ما يتعلّق بموت يوحنا نفسه (٢١ / ٢١ — ٢٤) يشير بوضوح إلى أن تلاميذه أرادوا تبرير موته، في حين أنه شاع بين الأخوة — خطأ — أنه لن يموت. وحادث المرأة الزانية (٨) لم يكتبه يوحنا.

٢ — كنيسة أفريقيا: إنّ العلّامة ترتليانس (Tertullien) دافع سنة ٢٠٨ عن صحّة الأناجيل الأربعة وطابعها الرسولي والقانوني، خلافاً للأناجيل المنحولة. وقد حارب في ذلك مارسيون (Marcion)، صاحب بدعة عدم صحّة الأناجيل الأربعة.

ويورد قبريانس (Cyprien)، حوالى سنة ٢٤٠ — ٢٥٠، مقاطع من الأناجيل باللغة اللاتينية قبل ترجمتها عن يد القديس هيرونيمس (Jérôme) (٣٥). وفي شواهده يضيف: «بحسب متى»، «بحسب مرقس»، الأمر الذي يثبت حقًّا أن في هذا الوقت وفي هذه الكنيسة كانت رسولية الأناجيل وقانونيّتها أمراً معروفاً.

وقبل ذلك في «أعمال الشهداء» (Acta Martyrorum)، حوالى سنة ١٧٠ — ١٨٠، نجد الظاهرة نفسها بلغة لاتينيّة تسبق الترجمة المعروفة بالشائعة (Vulgate). وهي تورد كذلك: «بحسب متى»...

٣ — كنيسة رومة: يتحدَّث يُستينس (Justin)، حوالى سنة ١٥٠ — ١٦٠، سبع مرات عن «ذكرى الرسل»، قاصداً بهذا التعبير «الأناجيل». وهو يستشهد بمتى خاصةً وبمرقس بقدر أقلّ.

٤ — كنيسة سورية: وقام طاطيانس (Tatien)، تلميذ يُستينس، بجمع الأناجيل الأربعة في مؤلّف واحد سمّاه باليونانية دياطسرون (Diatessaron) («انطلاقاً من الأربعة»)، حاذفاً من الأناجيل الأربعة ما لم يناسب بدعته، إذ كان صاحب بدعة تقاوم الزواج واستخدام النبيذ في الأفخارستيا). فأهميته تعود إلى أنه يعترف بالأناجيل الأربعة، وإن استخدمها لصالحه.

وعند اغناطيوس الأنطاكي (Ignace d'Antioche)، وهو تلميذ يوحنا الانجيلي مات في بداية القرن الثاني، شواهد تتفق وما سبق أن بيّناه[٣٧].

٥ — كنيسة فرنسا: يفسّر ايريناوس (Irénée)، في بداية القرن الثالث، العدد أربعة للأناجيل بأنه يرمز إلى جهات الكون الأربع، أي إلى شموليّة الأناجيل. والروح القدس هو الذي يضمن صحّتها. ويحدّد تاريخ إنجيل متى في سنة ٦٢، ومرقس بعد وفاة بطرس، ولوقا بعد وفاة بولس، ويقرّ بأن يوحنا كتب انجيله في أفسس[٣٨].

٦ — كنيسة آسية الصغرى: إنّ بابياس (Papias) قريبٌ جداً من الرسل، إذ إنه عايش البعض منهم، وخصوصاً يوحنا الشيخ. ويصرّح بأن إنجيل متى كُتب بالعبرية وبأن إنجيل

٣٧. ترجم هيرونيمس الكتاب المقدس إلى اللاتينية في نهاية القرن الرابع، وهي معروفة بالترجمة «الشائعة» (اللاتينية: Vulgate)

٣٨. يرفض المفسّرون معظم هذه التفاصيل. ولكن ما يهمّنا هو ذكره للأناجيل الأربعة.

مرقس أمين لتعليم بطرس، كما أنه يعترف بإنجيلَي لوقا ويوحنا. وهو معروف لدينا عن طريق خصمه مؤرخ الكنيسة المعروف بيوسابيوس (Eusèbe) الذي لا يقبل أن يكون يوحنا الحبيب قد كتب سفر الرؤيا، بل يوحنا الشيخ.

الخلاصة: تكتسب هذه المقتطفات الآبائية أهمية بالغة بالنسبة إلينا، لأنها متّفقة في الجوهر على رسولية الأناجيل الأربعة وقانونيّتها، رغم الاختلاف في بعض تفاسيرهم أو تأريخهم لها، بل إنّ هذه الاختلافات الطفيفة تطمئننا على صحة ما هم متفقون عليه وجدّيته. وتزداد أهمية هذه الشهادات بكونها مستقلّة بعضها عن بعض، لأنها من كنائس مختلفة. ومن الجدير بالذكر أن الاعتراف بالأناجيل الأربعة قديم جدًّا، منذ بداية القرن الثاني، أي بعد ظهور إنجيل يوحنا ببضع سنوات (بين سنة ٩٥ و ١٠٠). إلّا أنه، في القرن الرابع، ستعترف الكنيسة رسميًّا بالأناجيل الأربعة.

شهادة المخطوطات

لم تمثّل أقوال الآباء الأقدمين فقط شهادة يقينية لرسولية الأناجيل الأربعة وقانونيتها، بل هناك مخطوطات قديمة عديدة تثبت صحّة تاريخيّة الأناجيل. ونلقي نظرة على أقدمها وأشهرها:

١ — بردي من منتصف القرن الثاني: اكتُشف في نجع حمادي في منتصف هذا القرن. ويحوي جزءًا من رواية الآلام بحسب انجيل يوحنا (١٨)، ويُعَدّ أقدم مخطوط نعرفه، فإنه كُتب حوالى سنة ١٣٠ — ١٥٠، أي أقلّ من نصف قرن بعد ظهور إنجيل يوحنا. فوجود هذا المخطوط يؤكّد حداثة كتابة الانجيل، لا كما كان يدّعيه لوازي (Loisy) في بداية هذا القرن، من أنه كُتب بعد منتصف القرن الثاني، كما أنه يبيّن أنه كان معروفاً في وقت مبكر أن المؤلّف هو يوحنا. والجدير بالذكر أن ما عُثر عليه من نص الانجيل هذا أمين كل الأمانة لمخطوطات القرن الرابع والخامس الكاملة التي نعتمد عليها اليوم في ترجماتنا.

٢ — برديات من القرن الثالث: اكتشفها شستر بيتي (Chester Beatty) من جهة، وبودنر (Podner) من جهة أخرى، منها بردي للفصلين الثاني والخامس عشر ليوحنا والفصل الرابع عشر للوقا (اختلافات طفيفة عن مخطوطات القرن الرابع والخامس). وإذا جمعنا كل المخطوطات المكتشفة في مصر وحدها قبل القرن الرابع، توصلنا إلى حوالى نصف الأناجيل، مما يشير إلى سرعة انتشارها، علاوة على أمانتها.

٣ — مخطوطات القرن الرابع والخامس: بعد أن اعترف الامبراطور قسطنطين، سنة ٣١٣، اعترافاً رسميًّا بالديانة المسيحية، كثُرت المخطوطات شبه الكاملة للكتاب المقدس. ومنها اثنان برزا: الفاتيكاني (Vaticanus) والسينائي (Sinaiticus). وفي هذه الفترة، أي بعد كتابة الأناجيل بقرنين، بدأت المقارنة العلمية بين مختلف المخطوطات.

وللدلالة على أهميّة هذه المخطوطات، نقارنها

بما توصّل إليه الباحثون في جمعهم مخطوطات الأدب اليوناني والروماني :

١ — من حيث عدد المخطوطات :

— اسخيلس (Eschile) : لدينا عنه ٥٠ مخطوطاً ، كلها ناقصة ،

— سوفوكليس (Sophocle) : لدينا عنه ١٠٠ مخطوط

— تاقيطس Tacite : لدينا عنه مخطوط

— شيشرون (Cicéron) وأوفيديوس (Ovide) وفرجيليوس (Virgile) : لدينا عنهم حوالى ١٠٠ مخطوط

ومقابل ذلك ، بحوزتنا عن مخطوطات الأناجيل :

+ أكثر من ٤٠٠٠ مخطوط ما بين القرن الثاني والعاشر (كاملة أو غير كاملة).

+ عدد لا يحصى من شواهد الآباء عن الأناجيل (حوالى ٨٠٠٠) ، فضلاً عن صور لها (حوالى ١٠٠٠).

٢ — من حيث زمن المخطوطات :

— فرجيليوس (Virgile) : كتب قبل الأناجيل بـ ٥٠ عاماً. وأقدم مخطوط له يعود إلى ٤٠٠ سنة بعد كتابته ، وهناك مخطوطات بعد ٥٠٠ سنة.

— طيطس ليفس (Tite-Live) : أقدم مخطوط يعود إلى ٥٠٠ سنة بعد موته.

— تيرنتيوس (Térence) : أقدم مخطوط يعود إلى ٧٠٠ سنة بعد موته.

— هوراسيوس (Horace) : أقدم مخطوط يعود إلى ٩٠٠ سنة بعد موته.

— ديموستينس (Démosthène) : أقدم مخطوط يعود إلى ١٢٠٠ سنة بعد موته.

— توقيديدس (Thucydide) : أقدم مخطوط يعود إلى ١٤٠٠ سنة بعد موته.

— سوفوكليس (Sophocle)

— اسخيلس (**Eschile**)

— أرسطوفانس (Aristophane)

— هوميرس (Homère)

ومقابل ذلك ، نذكر أن أول مخطوط غير كامل يعود إلى أقل من ٥٠ سنة ، وهو الذي يحمل اسم ريلاندس (Rylands) . وأما المخطوطات الكاملة ، أو شبه الكاملة الفاتيكاني (Vaticanus) والسينائي (Sinaiticus) ، فأقل من ثلاثة قرون.

٣ — من حيث قيمة المخطوطات :

سوفوكليس (**Sophocle**) : على ١٠٠ مخطوط ، ٧ فقط لها قيمة. ومقابل ذلك :

+ $\frac{٧}{٨}$ من نص العهد الجديد : لا مشكلة فيها.

+ $\frac{١}{١٠}$ منه (حوالى ٢٠٠ آية) : شك فيه.

+ $\frac{١}{١٠٠٠}$ منه (حوالى ١٢ آية) : فيه مشكلة.

الخلاصة

نتبيّن في آداب العالم أقوالاً أو مخطوطات تثبت صحّتها مثلما استخلصنا ذلك بالنسبة إلى الأناجيل.

وتأتي هذه وتلك من مسيحيّين تعترف بهم الكنيسة (الآباء) أو تعتبرهم أصحاب بدع وهرطقات.

وأمّا الاختلافات في التقدير، فيمكن البتّ في أنها لا تمسّ، من جهة، رسولية أناجيلنا الأربعة وقانونيّتها، ومن أخرى، جوهر مضمونها. وكلامنا هذا مبنيّ على دراسة علمية دقيقة (لم نورد منها هنا إلّا خطوطها العريضة). وأما من يدّعي غير ذلك من انتحال (من حيث الرسولية القانونية) أو تحريف (من حيث جوهر المضمون)، فحديثه غير علمي، بل هو موجّه توجيهاً يفرضه معتقده الفلسفي أو الديني.

وما من مبالغة في اعتبار الأناجيل «معجزة»، وواقعتها «إعجازاً» بتمام معنى الكلمة. ويعود ذلك إلى تدخّل الله لنشر كلمته، — البشرى — مستعيناً بالمخاطر البشرية من تضارب في الأقوال والآراء، ومن إمكان الشك في يقين المخطوطات.

بين الأناجيل والمجتمع الفلسطيني

إذا تابعنا مقارنتنا، مدقّقين نظرنا هنا على المقارنة بين البيئة التي تصفها الأناجيل وفلسطين أيام يسوع، توصّلنا إلى صحة تاريخيّة الأناجيل. نتناول ذلك على مستويات مختلفة:

البيئة اللغوية

تتضمن اللغة اليونانيّة، التي كُتبت بها الأناجيل، صيغاً وكلمات، بل اسلوباً ساميًّا (Sémite). فعلى سبيل المثال:

+ استخدمت الأناجيل باليونانية أسلوباً ليس هو بالأسلوب اليوناني، بل يبدو واضحاً أنه مترجم عن العقلية الساميَّة. فعلى سبيل المثال، قول يوحنا المعمدان: «لا بدّ له من أن يعظم ولا بدّ لي من أن أصغر» (يو ٣ / ٣٠).

فهذا الأسلوب، وهو «موازاة نقيضية» (Parallélisme antithétique) أسلوب عبري.

وكذلك: «من يأتني لا يجُعْ أبداً، ومن يؤمن بي لا يعطش أبداً» (يو ٦ / ٣٥) وهو «موازاة ترادفية» (synoptique).

وأما التطويبات واللعنات، فهي تجمع بين الاثنين: «طوبى لكم أيها الجياع الآن، فسوف تشبعون... الويل لكم أيها الشباع الآن، فسوف تجوعون» (لو ٦ / ٢١ — ٢٥).

وفي حادث اعتراف بطرس بألوهيّة يسوع، يتّسم رد يسوع بأسلوب ساميّ واضح:

طوبى لك: أنت / ليس اللحم والدم... / بل أبي...

وأنا أقول لك / أبني كنيستي... / أبواب الجحيم...

أعطيك... / ما ربطتَ... / ما حللتَ...

فهذا التقسيم الثلاثي ثلاث مرّات هو من مميّزات التعبير الساميّ.

- وفي كلمة يسوع للمرأة الكنعانية، هناك «جناس»، يعود إلى الأصل الآرامي:

«لا تعطوا للكلاب ما هو مقدّس (Kadash)

ولا تلقوا إلى الخنازير لؤلؤكم(Kadashé) (متى ٧ / ٦).

كما أن بعض الكلمات في النص اليوناني واردة باللغة الآرامية، مثل: «رابّي»، «**افتح**»، «طليتا قوم»...

وأخيراً لبعض الكلمات اليونانية صدى عبري واضح: «سلام»، «مجد»، «حقيقة»، «براقليط».. إنها مكتوبة باليونانية، إلّا أن مضمونها عبري يعود إلى التقليد الكتابي العبري.

البيئة الجغرافية والأثرية

ان الاكتشافات الأثرية في فلسطين تُثبت كل ما تصفه الأناجيل:

— «البلاط» (Lithostrotos) في يو ١٩ / ١٣: اكتُشف، وهو بلاط بيلاطس حيث يكون يسوع قد بدأ حمل صليبه (بحسب تقاليد من القرن الرابع والخامس). لكن بعض العلماء يرجّحون أن الاكتشاف يتعلّق بقصر هيرودس أكثر منه بقصر بيلاطس.

— «الأروقة الخمسة» في يو ٥ / ٢: اكتُشفت بركة لها أربعة أروقة في أطرافها، ورواق خامس في وسطها، في حين أن العادة درجت أن تكون هنالك أروقة أربعة فقط. ووُجدت أيضاً أجاجين للتطهير، قد تكون إحداها للعلاج.

— بئر يعقوب وكل المنطقة — الجبل والسهول حيث وفرة الحصاد... في يو ٤: كلها موجودة واكتُشفت[٣٩].

البيئة التاريخيّة

إن الدراسات التاريخيّة تؤكِّد هي أيضاً صحّة ما ورد في الأناجيل: هيرودس، **أرخلاوس**، بيلاطس البنطي، هيرودس... والمثل الذي ضربه يسوع والوارد في لو ١٩ / ١١، إشارة إلى أرخلاوس، في حين أن رواية متى ٢٥ / ١٤ + تقترب من «التمثيل» (Allégorie) دون الإطار التاريخي، وفي ذلك يظهر لوقا مؤرّخاً.

وهذا لا يمنع أن تكون ثمة بعض المشاكل: فالمؤرخ فلافيوس يوسيفس (Flavius Josèphe) يتحدّث عن إحصاء أجراه الحاكم قيرينيوس، قد يكون الاكتتاب الذي تكلّم عليه لوقا في ٢ / ١ +. إلّا أن هذا الإحصاء حدث، بحسب المؤرخ، سنة ٦ ميلاديًّا، مما يمثّل مشكلة تاريخيّة لم يتوصل المؤرخون إلى حلّها. وكذلك ان اسم زوج هيروديا، وهو فيلبس (مر ٦ / ١٧)، يمثّل مشكلة ذات طابع تاريخي.

البيئة الاجتماعيّة

لا تخلو الأناجيل من تفاصيل عفويّة تلائم تماماً ما هو معروف في فلسطين آنذاك من حيث البيئة الاجتماعيّة: المهن، واللباس، وبناء البيوت... هذا وقد رأينا كيف أن في مثل يسوع على الرجل الذي بنى بيته على التراب أو الصخر، تأقلماً بالبيئة التي كتبت فيها الأناجيل (فلسطين؟ ومصر؟).

٣٩. إن تفاصيل يوحنا — رغم أنه قيل في انجيله أنه روحاني ورمزي — غاية في الدقة والصحة.

وعلى نقيض ذلك، فإن بيئة بولس الاجتماعية متأثّرة بثقافته اليونانية والرومانية، لا بفلسطين.

البيئة الدينية

إن اكتشافات «قمران» في هذا القرن دلّت على وجود حياة جماعة رهبانية[٤٠]، ربما كان يوحنا المعمدان ينتمي إليها، وربما قد تأثّر بها يسوع نفسه حين بدأ رسالته في ظل المعمدان، كما أشرنا إليه.

اكتُشفت قوانين هذه الجماعة، فكانوا يشدِّدون على التوبة الباطنية، وكانوا يُعمِّدُون عماد التوبة، منتظرين الروح ويوم الرب والعهد الجديد والأبدي في شخص «معلّم البر» الذي حقّقه يسوع بالفعل. ولتعليمهم عن التبرير بالأعمال، صدى في رسائل بولس، وكذلك إيمانهم بالملائكة الذي يشير إليه بولس في رسالته إلى أهل قولسي، وفي الرسالة إلى العبرانيين. وقد تأثّر بهم يوحنا الانجيلي بلا شكّ، حين كان تلميذاً للمعمدان («روح الحقّ»، «النور والظلام»، «الحقيقة والكذب»...).

الخلاصة

تؤكد لنا هذه الجولة أن البيئة الإنجيلية بيئة فلسطينية بلا أيّ شكّ، في حين أن بيئة أعمال الرسل أو رسائل بولس ليست كلّها فلسطينية. والأناجيل أمينة في وصفها العفوي لهذه البيئة.

بين الأناجيل والمُؤرِّخين غير المسيحيّين

يؤكد المؤرخون غير المسيحيّين مجمل الأحداث التاريخيّة التي توردها الأناجيل.

١ — أشهرهم فلافيوس يوسيفس (Flavius Josèphe) اليهودي (٣٧ — ١٠٠) الذي يتحدّث بطريقة غير مباشرة عن يسوع ثلاث مرات في مؤلفه «العصور اليهودية القديمة» (سنة ٩٣). وفي أحد هذه النصوص، يقول ان يسوع صلب في عهد بيلاطس البنطي وان تلاميذه كانوا يدّعون أنه المسيح وأنه قام من بين الأموات[٤١]. وتعود أهمية هذا المؤرِّخ إلى أنه كان يهوديًّا لا مسيحيًّا[٤٢]، قريباً جداً من أحداث يسوع وشهوده.

٢ — والمؤرخ بلينوس الصغير (Pline le Jeune) يصف في رسالته العاشرة (سنة ١١٢) المسيحيّين وعبادتهم، ولكنه لا يقول شيئاً عن شخص يسوع.

٣ — والمؤرخ تاقيطس (Tacite) يصف اضطهاد نيرون للمسيحيّين، وكان عددهم كبيراً — سنة ٦٤ في كتابه عن تاريخ الشعوب (سنة ١١٥)، وكذلك عن حكم بيلاطس البنطي على المسيح — حين كان طيباريوس أمبراطوراً.

٤ — والمؤرخ سوتينس Suétone في كتابه عن قلاوديوس (سنة ١٢٠) يروي الحادث

٤٠. الأسّينيّون (Esséniens). لا يتّفق كل المفسّرين على أن كل رهبان قمران كانوا اَسّينيّين.

٤١. مع ملاحظة تميّز بين الحدث التاريخي (الموت) والمدلول الايماني (القيامة).

٤٢. يتحدث أيضاً عن يوحنا المعمدان (سنة ٢٧)، وأغريبا (سنة ٤٤): راجع رسل ١٢ / ٢٠.

الوارد في رسل ١٨ / ٢ وقد جرى ما بين سنة ٤٩ و ٥٢ .

٥ — والمؤرخ **سيلس** Celse (١٧٠) ينتقد المسيح بعنف، فيعتبره دجّالاً يستخدم السحر في معجزاته. وبهذه الطريقة يثبت صحّة الأناجيل وما ورد فيها من **معجزات**، إذ يعتمد عليها لينتقدها.

جميع هذه الوثائق التاريخية يمكن الاستناد إليها، لأنها غير منحازة إلى المسيح أو المسيحيّين، ثم انها تتحدث عنهم دون أن تقصد إثبات رأي أو دين أو فلسفة معيّنة، بل تتكلّم عليهم في مجرى حديثها، مما يزيد من قوة دلالتها التي تؤكد متانة الصحة التاريخية التي تتمتّع بها الأناجيل.

بين الأناجيل وبولس

قيل في شهادة بولس إنها «إنجيل خامس». **فهو شاهد أمين ليس له أية مصلحة شخصية، وهو مطّلع إطّلاعاً دقيقاً على أحداث حياة يسوع المسيح التي عاين وعاشر معاصريها مع أنه لم يعشها، فيكمِّل ما يورده كتاب أعمال الرسل. وميزة المقارنة بينه وبين الأناجيل أنه مستقل عنها تماماً، فقد كتب منذ حوالى سنة ٥٠ — ٥٥، في حين أن الأناجيل بدأت تصدر حوالى سنة ٧٠.**

نحاول في هذه الفقرة أن نقارن الخطوط العريضة التي تتركّز عليها رسائله بمضمون الأناجيل. ثم نُظهر الفرق بين البيئة البولسية والبيئة الانجيليّة.

مضمون الأناجيل ورسائل بولس

ان محور شهادة بولس حدث موت / قيامة يسوع المسيح: «بلّغتُ إليكم قبل كل شيء ما تلقّيتُه، وهو أن المسيح مات من أجل خطايانا، كما جاء في الكتب، وأنه قبر، وقام في اليوم الثالث، كما جاء في الكتب، وانه تراءى لصخر فالاثني عشر...» (١ قور ١٥ / ١ +، راجع روم ٣ / ٢٥ وغل ٣ / ١)[٤٣].

والقيامة عند بولس هي عماد الإيمان المسيحي: «إذا لم يكن المسيح قد قام، فإيمانكم باطل» (١ قور ١٥ / ١٧).

ويأتي بولس — قبل الأناجيل — بتفاصيل — وردت في الأناجيل — عن تأسيس الأفخارستيا (١ قور ١١ / ٢٣) وعن موت المسيح مصلوباً (غل ٣ / ١) في عهد بيلاطس البنطي (١ طيم ٣ / ١٦)، وفي أيام الفصح (١ قور ٥ / ٧).

وأما تعليمه فلا يختلف عن تعاليم الأناجيل من حيث المجيء الثاني (١ تس و٢ تس) ومحبة القريب وخاصةً الأعداء (روم ١٢ / ١٤)، وعدم فسخ الزواج (١ قور ٧ / ١٠)، ويميّز بين التعليم الإلهي وتعليمه الخاص: راجع ١ قور ٧ / ٢٥...

٤٣. الرسالتان إلى قورنتس كُتبتا ما بين ٥٥ و ٥٧ — غلاطية: حوالى ٥٥ + روم: ٥٧ و ٥٨، فهي رسائل قديمة.

البيئة الانجيلية والبولسية

يكتسب هذا التشابه أهمية أكبر، إن قارنّا البيئتين وهما مختلفتان. فرغم أن الأناجيل كُتبت بعد رسائل بولس، إلّا أن بيئتها سابقة لبيئة بولس:

١ — **المؤسسات**: في الأناجيل، لا تتميّز الديانة المسيحيّة عن الديانة اليهودية، فكان يسوع وتلاميذه يصلّون في المجامع وكان يسوع يعلّم فيها. وبهذا المعنى قال يسوع: «لا تظنّوا أني جئت لأُبطل كلام الشريعة والأنبياء، ما جئت لأُبطل بل لأُكمل» (متى ٥ / ١٧)، فكلامه هذا يجب أن يوضع في إطار المجادلات بينه وبين اليهود. وهذا الإطار كان تغيّر في أيام بولس. لذلك نراه يشنّ حملة شعواء على الشريعة اليهودية (غل ٣ وروم ٥).

أما الرسالة قبل الفصحية، فهي خاصة بالشعب اليهودي، بمعزل عن الوثنيين، كما رأينا آنفاً، وأما بولس فنعرفه «رسول الأمم»[٤٤].

٢ — **الاتجاهات الدينية**: في الأناجيل تبدو الاعتقادات الخاصة بالمسيّا (المسيح المنتظر) بدائية وغير مناسبة لمسيانية يسوع، لذلك يرفضها يسوع ويُخفي أنه المسيح («السر المسياني»). وأما بولس فيستخدم لقب «المسيح» أساساً للإيمان المسيحي وشموليته، إذ إن بيئته غير بيئة الأناجيل في أيام يسوع الأرضيّة. وكذلك في الأناجيل الإزائية، فإن النزعة المقاومة للاتجاه الفرّيسي كانت قويّة، لأن سلطة الفريسيّين كانت في أيام يسوع الأرضيّة ذات تأثير بالغ في اليهود. وأمّا في بيئة بولس، فلم يعد أثرهم بالأهمية نفسها. ويثور بولس على اليهود الذين رفضوا المسيح، كما أنه يثور على بعض الاتجاهات الغنوصية.

٣ — **العقيدة**: ليست الأناجيل كتاباً عقائديًّا كما رأينا، خلافاً لرسائل بولس، فهي تستفيض في شرح لاهوت المسيح والعقيدة المسيحية — أو «السر» ولاهوت الكنيسة — «جسد المسيح» — ولاهوت شمولية المسيحية... والأناجيل تستخدم ألقاباً «كابن الإنسان» وتعابير مثل «ملكوت الله»...، لا يستخدمها بولس، لأنها لم ترد في التقاليد التي تسلّمها.

فرسائله تعرض «فكراً لاهوتيًّا» بكل معنى الكلمة، في حين أن الأناجيل هي «شهادة إيمانية»، كما سبق أن حدّدنا.

الخلاصة: إن الفروقات بين الأناجيل وبولس حجّة لصحّة تاريخيّة الأناجيل، لأنها تُبرز جليًّا البيئات الحياتية المختلفة هنا وهناك. ولشدّة هذه الفروقات، ادّعى بعضهم أن مؤسس المسيحية الفعلي هو بولس، لا يسوع الناصري، وإن كان في هذا الحكم مبالغة واضحة، فهو يؤيّد صحّة الأناجيل بمعنى أن كلتا البيئتين مختلفتان لأنهما

٤٤. يخفّف لوقا حدّة الكلام على الوثنيين بالنسبة إلى متى ومرقس (مثلاً لو ٦ / ٣٢ + ومتى ٥ / ٤٧)، لأنه يوجّه انجيله إليهم، وربّما لأنه كان تلميذ بولس.

مستقلّتان، ورغم ذلك فهما متّفقتان على جوهر المضمون وعماد الايمان[٤٥].

الخلاصة

نستشفّ من كل هذا الباب قاعدة متينة تثبّت صحّة الأناجيل من حيث إنها تاريخيّة، لا بمعنى أنها كتاب تاريخ، بل بمعنى أنها تسرد أحداثاً — من أقوال وأعمال وأحداث — وقعت تاريخيًّا ومرتبطة بيسوع الناصري. فسواء أكان النقد الخارجي (المقارنة بما قاله غير المسيحيين، الاستناد إلى المخطوطات) أو النقد الداخلي (مقارنة نصوص الأناجيل بنصوص بولس مثلاً)، فكل ما يتوصّل إليه العلم اليوم يشيد بصحّة تاريخيّة الأناجيل.

وهذا الاتفاق العام يعني بالذات حدث موت يسوع المسيح وقيامته، وهو جوهر الايمان المسيحي. فسواء أكانت بعض التقاليد المختلفة متأثّرة ببعضها الآخر أو مستقلّة، فأساسها موت / قيامة المسيح، ولا مسيحيّة من دون ذلك.

وليس من المعقول أن تكون الجماعة المسيحية عامةً، والرسل خاصةً، قد ابتكروا هذا، وبالأخص ألوهيّة يسوع الناصري. فلو كانوا اتفقوا على ذلك، دون أن يكون يسوع هو نفسه قد أعلن ذلك ودون أن تكون قيامته قد أثبتته، لكانوا قدّموا إنجيلاً واحداً منسّقاً متّفقاً عليه، حتى يتحاشوا أي احتمال للاختلاف، وان كان اختلافاً في التفاصيل. ولكننا أسهبنا في إظهار تعدّدية القصد اللاهوتي وشخصيّة الانجيليّين وأهدافهم والبيئات التي استقوا منها رواياتهم والتي وجّهوا إليها كتاباتهم... فلا توحي الأناجيل بأي إحساس بالتحريف أو التلفيق، بل أظهرنا باستمرار عفوية ما ورد فيها، كما أننا لم نُخْفِ الاختلافات العديدة التي، إن دلّت على شيء، فعلى صحة تاريخيّتها، لا على تحريفها. فمسألة «التحريف» ليست مبنية على أي أساس علمي يقبله الباحث العلمي، بل هي قضية أساسها إيمان بمعتقد معيّن يخالف مضمون جوهر الانجيل، أي موت / قيامة يسوع المسيح: «... لتؤمنوا بأنّ يسوع هو المسيح ابن الله، فإذا آمنتم، نلتم باسمه الحياة» (يو ٢٠ / ٣١).

٤٥. يمكن أن نضيف أن أعمال الرسل تكمّل الأناجيل، ويمكن مقارنة بعضها ببعض، كما فعلنا بالنسبة إلى بولس، علماً بأن كل ما ترويه أعمال الرسل والأناجيل كان من الممكن التأكد منه في جوار معاصري الأحداث ومشاهدي ظهورات يسوع.

الخاتمة العامة

بين الوحي والإلهام

إنّ يسوع المسيح هو الذي أعلن الآب، أي أنه صاحب الوحي. والروح القدس هو الذي يتمِّم هذا الإعلان في كنيسة كل زمان وكل مكان، وهذا ما نبيّنه في فقرة أولى. وللإنسان دور فعّال في الوحي، إذ ان الروح القدس يلهمه، وهذا ما نبيّنه في فقرة ثانية.

وقبل معالجة هذه القضيّة، ينبغي لنا أن نوضّح مفاهيمنا. فالوحي هو الإعلان عن ماهية الله — الله محبة، ثالوث — وعن أقواله وأعماله للبشر — الخلاص، البنوّة. وهذا ما قام به الله يهوه منذ العهد القديم وأكمله يسوع المسيح تماماً. وأما الإلهام فهو عمل الروح القدس في المؤمنين — خاصةً الرسل — في تكوين الكتاب المقدس في عهديه عامةً، والأناجيل التي نحن بصددها خاصةً، سواء أكان على المستوى الشفهي أو الكتابي. وبهذا المعنى، يقال إنّ الكتاب المقدس مُلْهَم، أو ألهمه الروح القدس.

فبناء على هذين المفهومين، بمقدورنا تحليل قضيتنا.

دور الروح القدس

إن الإعلان الذي أوحى به يسوع يحقّقه الروح القدس في الكنيسة جيلاً بعد جيل، وفي الأفراد شخصاً بعد شخص. ولتمييز نوعيّة عمل كلٍ منهما، يمكن القول إن يسوع قد أعلن إعلاناً عاماً، وأما الروح فيعلن الإعلان خاصةً. يسوع يعلن موضوعيًّا، والروح ذاتيًّا. يسوع يعلن للبشر، والروح يكون فيهم. فالروح إذاً عنصر تخصيص وتشخيص للاعلان الذي أعلنه يسوع.

إلّا أن التمييز بين يسوع والروح يعود إلى طريقة عمل كل منهما في الوحي. وأما الوحي نفسه فواحد، وقد قال يسوع في هذا الصدد في الروح: «لا يتكلّم بشيء من عنده، بل يتكلّم بما

يسمع ... يأخذ ممّا لي ويطلعكم عليه» (يو ١٦ / ١٣ — ١٥).

وأما عمل الروح المرتبط ارتباطاً وثيقاً بشخص يسوع وإعلانه فيتمثّل في أنه يعلّمكم كل الأشياء. «ويذكّركم كل ما قلته لكم» (يو ١٤ / ٢٦)، «وينبئكم بما يحدث» (يو ١٦ / ١٣)، «ويُرشدكم إلى الحق كلّه».

فالروح ذاكرة الكنيسة، يذكّرها بما أوحى به يسوع. وهو معلّمها، يعلّمها، جيلاً بعد جيل، التعليم نفسه، الذي نطق به يسوع، كما أنه يشرح لها حقيقة ما حدث ليسوع المسيح عندما مات وقام.

فخلاصة القول أن الوحي واحد بين يسوع والروح، إذ إنه وحي الآب والابن والروح[46] — إلّا أن طريقة أدائه وإعلانه تتميّز في ما بينهم، فالآب هو الذي يُرسل الابن ليعلن الوحي للانسان، والابن هو الذي يُعلن الوحي، والروح هو الذي يتمّم الوحي في الكنيسة عامةً والأشخاص خاصةً.

دور الإنسان

ومن هذا المنطلق، يمكننا أن نرسم ملامح دور الإنسان في الوحي، إذ إن الله شاء أن يشرك الإنسان في الوحي، فلا يكلّمه كلاماً إلهيًّا لا يفهمه، بل يترك الإنسان يعلنه بكلماته البشرية.

وتوضيحاً لدور الإنسان هذا، نميّز بين ثلاث خطوات اشترك فيها الإنسان في الوحي المسيحي:

١) الرسل شهود للمسيح القائم:

لقد انطلقت المسيحية من شهادة الرسل: «... ذاك الذي سمعناه... رأيناه... تأمّلناه... لمسته يدانا من كلمة الحياة — لأن الحياة تجلّت فرأيناها ونشهد لها ونبشّركم بتلك الحياة الأبدية ... — نبشّركم به لتشاركونا أنتم أيضاً... إليكم البلاغ الذي سمعناه منه ونبشّركم به...» (١ يو ١ / ١ — ٥).

هذا وقد وعد يسوع المسيح تلاميذه بأنهم سيشهدون له:

«تكونون لي شهوداً في أورشليم... حتى أقاصي الأرض» (رسل ١ / ٨)، وشهادتهم هذه هي شهادة الروح القدس نفسها، أي أن الروح يشهد معهم: «هو يشهد لي، وأنتم أيضاً ستشهدون» (يو ١٥ / ٢٦ — ٢٧).

ولذلك شدّدت الأناجيل وخطب الرسل على أهمية ظهور يسوع المسيح القائم. فهم يشهدون أنه حي، أنه مات ثم قام. فشهادتهم لا تختص بسرد أقوال المسيح وأعماله فقط، بل تتعلّق بحدث موته وقيامته. شاهدوه حيًّا، وقد اختبروه قبل موته، فشهدوا له. فبقدر ما الوحي يختص بشخص يسوع المسيح، كما رأينا، فالرسل يشهدون أنه حيّ رغم أنه مات. ولولا شهادتهم بأنه حيّ، لما

٤٦. في بعض المخطوطات: «الذين يشهدون ثلاثة: الآب والكلمة والروح القدس. وهؤلاء الثلاثة هم واحد» (١ يو ٥ / ٧).

عرف العالم أنه قام. فبهذا المعنى، يجب القول بأن التلاميذ — وقد ملأهم الروح القدس — أعلنوا الوحي. فهم شركاء في الوحي، أشركهم الله في تبليغه.

٢) الرسل يعبّرون عن الوحي:

ثمّ إنّ الرسل وجدوا التعابير والألقاب للدلالة على أن يسوع حيّ حقًّا. فمن الجدير بالذكر أن يسوع لم يقل قط إنه الله أو ابن الله، أو المسيح... بل ترك رسله التلاميذ يعبّرون عن إيمانهم به:

«من أنا على حدّ قولكم أنتم؟» «أنت المسيح ابن الله الحيّ» (متى ١٦ / ١٥ — ١٦).

ففي هذه الخطوة أيضاً، أشرك الله الإنسان في إيجاد الألقاب المناسبة للدلالة على الإيمان وللتعبير عن الوحي.

٣) الرسل يدوّنون الوحي:

وأخيراً دوّن الرسل اختبارهم وشهادتهم للمسيح الحيّ في الأناجيل وفي سائر كتب العهد الجديد. ونحن نعلم أن تدوينهم هذا ليس سيرة ليسوع أو تحقيقاً صحفيًّا أو كتاب تاريخ، بل هو قراءة لاهوتية لما قاله وفعله وجرى له، في ضوء موته / قيامته. وقد تأثّر تدوين الوحي هذا بشخصية كلّ مؤلّف وأسلوبه ونظرته اللاهوتية واختباره الشخصي ليسوع المسيح...

ففي هذه الخطوة كذلك، أشرك الله الإنسان في الوحي.

ونستخلص من هذه الخطوات الثلاث الدور الفعّال الذي قام به الإنسان في الوحي. لذلك لا يُعتبر الوحي المسيحي منتهياً عند صعود يسوع المسيح أو حلول الروح القدس، ولكنه يستمر حتى آخر الرسل، حتى تدوين آخر كتاب في العهد الجديد. ويجدر بنا أن نلاحظ ما يلي:

١) في الخطوات الثلاث التي ميّزناها، كان الروح القدس يُلهم الرسل ويُرشدهم، بحسب وعد يسوع المسيح (يو ١٤ / ١٦) وطبقاً لما يرويه كتاب أعمال الرسل. وإنّ إلهام الروح القدس يضمن صحّة ما قاله الرسل وفعلوه ودوّنوه، فلا تحريف من عندهم، لأن الروح القدس كان يرشدهم إلى الحقّ كلّه ويشهد مع أرواحهم. ويعبّر بولس عن اتّحاد الإنسان بالروح في قوله: «الروح نفسه يشهد مع أرواحنا بأننا أبناء الله» (روم ٨ / ١٦).

وأما الرسل، فكثيراً ما كانوا يقولون: «رأى الروح القدس ورأينا نحن...» (رسل ١٥ / ٢٨).

ب) لا يزال الروح القدس يُلهم الكنيسة فيما يختص بالوحي. فإن لم يقل يسوع ولا كتب العهد الجديد أن يسوع هو «الله» — بالحرف الواحد —، إلّا أن المجامع أقرّت ذلك بإلهام من الروح القدس وانطلاقاً من العهد الجديد الذي يتضمن هذا اللقب. فلم ينته دور الروح القدس ولا دور الكنيسة.

ج) إن كان الوحي بالمعنى المعروف قد انتهى مع آخر الرسل، إلّا أن الوحي بمعناه العام سينتهي عند «المجيء الثاني»، عندما يفضّ الحمل الخُتُم السبعة (رؤ ٦). بهذا المعنى يمكن القول إن الكنيسة داخلة في الوحي وإنه لم يُختم بعد.

د) إذا قارنّا بين الوحي المسيحي واليهودية

والإسلام، وجدنا شبهاً وفروقات. ففي اليهودية يشترك الإنسان هو أيضاً في الوحي بمعنى أنه دوّن الكتب المقدسة وقد صاغها بأسلوبه، كما أنه عبّر بتعابير بشرية عن ماهيّة الله وعن اختياره له، وذلك في شخص الأنبياء خاصةً بالهام الروح القدس. وأما الإسلام[٤٧] فوضعه مختلف، إذ إنّ شخص محمد ما هو إلّا موصّل للوحي، فالقرآن كتاب مغلق... أي أنه كلام الله الأزلي الذي لا يتدخّل فيه البشر — فلم يدخل محمَّد فيه بل اقتصر دوره على أنه تلقّاه من الله وسلّمه إلى أمّته، وما السنّة والأحاديث النبوية سوى تفسير وتطبيق له، لا أكثر. فلا يجوز القول بأن **محمداً اشترك في** الوحي، بل كان أداة للوحي لا غير. فالمسيح بالنسبة للمسيحيين هو بمثابة القرآن للمسلمين، وليس المسيح على مستوى محمد، والرسل هم أداة للتوصيل،كما أن **محمداً هو موصّل**، فهم على مستواه، مع الفارق أن الرسل اشتركوا في الوحي —كما رأينا— في حين أن **محمداً لم** يشترك فيه، بل وصّله فقط لا غير.

وختاماً، يطمئننا الوحي المسيحي لأنه وحي للإنسان، موجّه إليه، فليس الوحي بعيداً عنه، بل هو من عالمه من حيث التعبير والشهادة له. وكلامنا هذا لا يعني أن مضمون الوحي بشري أو أن الإنسان يستطيع أن يحويه أو يمتلكه. جلّ ما نقوله أن الله أشرك الإنسان في الوحي، ومزجه به، واستعان بحريّته، فاتَّحد عالم الله بعالم البشر. ويعود الفضل في ذلك إلى التجسد حيث اتّحد الله بالإنسان.

٤٧. بالطبع بحسب المعتقد الإسلامي.

محتويات الكتاب

الصفحة

أنجزت مطبعة دكاش
طباعة هذا الكتاب في الثلاثين من شهر
أيلول سنة ١٩٩٠

٥٧ ـ ٥ ـ ٩٠/٩/٣٠

